

جبرئیل زبیداف

# الحجاج بن يوسف



سلسلة تاريخ الاسلام

روايات الحلال









# روايات الهلال

صاحبها ورئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٨ \* أغسطس ١٩٤٩ \* شوال ١٣٦٨

## بيانات ادارية

عن العدد في مصر والسودان ٦٠ مليما - في الاقطار  
العربية عن الكميات المرسله بالطائرة : في سوريا ٨٠ قرشا  
سوريا - في لبنان ٨٠ قرشا لبنانيا - في فلسطين ٧٥  
ملا - في شرق الاردن ٨٥ ملا - في العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة ( ١٢ عددا ) : في القطر المصري  
والسودان ٦٠ قرشا - في سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش  
سوري او لبناني - في فلسطين وشرق الاردن ٨٠٠ مل -  
في العراق ٨٠٠ فلس - في المملكة العربية السعودية ٨٠  
قرشا صاغا او ١٧ شلنا - في الولايات المتحدة وكندا  
وكرولومبيا والمكسيك والارجنتين ٦ دولارات - في سائر  
انحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ او ٦ / ٢٠ شلنا

## طريقة الدفع

في مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات  
بريدية او شيكات - في خارج القطر المصري : بموجب حوالة  
مصرية على احد بنوك القاهرة او حوالة نقدية ( Money Order )  
او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول  
اذونات البريد او العملة الاجنبية

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المتدين - القاهرة

المكاتب : روايات الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٤٦٠٦٤ ( ثمانية خطوط )

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

## كلمة التحرير

هذه هي الرواية الثامنة من روايات الهلال ، وانه ليسرنا أن نرى ثمار هذه الروايات قد أخذت في النضج بين القراء ، ففي كل شهر ينمو شوقهم الى مطالعة التاريخ الاسلامى وما فيه من دروس وعبر ، حتى ان الكثيرين من القراء والمشتكرين الجدد يطالبوننا بما فاتهم من اعدادها السالفة ، وباعادة طبعها مرة أخرى بل ان البعض بعث يشترك في روايات الهلال للعام الحالى ،  
والعام القادم

ورواية « الحجاج بن يوسف » حلقة جديدة من سلسلة تاريخ الاسلام وحوادثه الكبرى . وهى مأساة من مآسى التاريخ . .  
واى مأساة أكبر من رمى الكعبة بالحجارة ، وهى اعظم حرم اسلامى مقدس ، جعله الله مثابة للناس وأمنا ، واتخذة الحجاج هدفا للسهم والنبال ، وميدانا للمذابح والقتال . فحاصر مكة زمنا ، وقتل عبد الله بن الزبير وأنصاره بالمسجد الحرام ليستتب الملك لبنى أمية ، ولتخلص الخلافة لعبد الملك بن مروان

وفي هذه الرواية وصف دقيق للنواحي السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر ، بل فيها وصف للناحية الادبية ايضا ، فهى تاريخ واجتماع وسياسة وأدب . فلا تقتصر على طمع بنى أمية فى الملك ، ولا على قسوة الحجاج ، بل تتناول أدب سكينه بنت الحسين ، وحب لىلى الاخيلية ، وكثير عزة ، وأدب الفرزدق وجرير أما الرواية القادمة فهى « شارل وعبد الرحمن » . وهى تحوى أحداثا غرامية مشوقة الى جانب ما فيها من أحداث كبرى كفتوح العرب فى فرنسا الى ضفاف نهر لوار بجوار تورس ، وما جرى بين شارل مارتل وعبد الرحمن الفافقى . ثم ما كان من تضامن الافرنج والاسباب التى أدت الى فشل العرب بعد ما كادوا أن يفتحوا أوروبا فى ذلك الزمان





# الحجاج بن يوسف

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى  
فتحها ومقتله وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان .  
مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة

---

لؤيس الملال

جرجي زيدان

١٨٦١ - ١٩١٤

---

دار الهلال بمصر

## أبطال الرواية

* عبد الله بن الزبير	: ابن الزبير بن العوام
* عبد الملك بن مروان	: أحد ملوك بني أمية
* الحجاج بن يوسف الثقفي	: عامل عبد الملك على العراق
* سكينه بنت الحسين	: بنت الحسين بن علي
* ليلى الاخيلية	: الشاعرة المشهورة
* عزة الميلاء	: زعيمة الفناء بالمدينة
* سمية بنت عرفة الثقفي	: من فتيات المدينة
* حسن خطيب سمية	: من أهل العراق
* محمد بن الحنفية	: أخو الحسين بن علي
* عبد الله بن صفوان	: من أتباع ابن الزبير

## مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

* صفوة الاعتبار	* المستطرف
* مرصد الاطلاع	* الدر المنثور
* الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني	* مشكاة المصابيح
* التوقيف العام	* البخاري
* البيان والتبيين	* مقدمة ابن خلدون
* تاريخ : ابن هشام - ابن الأثير -	* أسد الغابة
* الدميري - ابن خلكان - القزري	* العقد الفريد

## فذلكة تاريخية

انتهينا في رواية « غادة كربلاء » الى مقتل الحسين بن علي واهله في كربلاء بجوار الكوفة ، وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وكان عبد الله بن الزبير ما زال في مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نمير ، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار . ولم يكن من ابناء يزيد من يصلح للخلافة ، فرأى الحصين ان الامر لا يستتب الا ببايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه ان يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام لبايعة فابى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير

اما اهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية ( الثاني ) . ولكن هذا لم يعش الا اياما ، فاختلفوا فيمن يبايعون بعده . وكان من امراء بنى أمية وقتل مروان بن الحكم ، وقد تولى امانة المدينة في عهد يزيد ، فلما علم بموته عاد الى الشام ، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا في السن ، فتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر نفس خالد عن طلب الخلافة . ويكتسب حزبه . ولكنه لم يحكم الا تسعة اشهر وبضعة عشر يوما ، اذ خنقته امراته هذه سنة ٦٥ هـ . فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفي ايام هذا الخليفة زهت دولة بنى أمية وتايد سلطانها

واما اهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد واصحابه بدمه وسما انفسهم التوابين

وفي سنة ٦٦ هـ . ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن ابي عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعته ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيد الله بن زياد وشمس بن ذي الجوشن وخولي الاصبحي وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث ان غير

دعوته ، فأخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين لأبيه ، وزعم  
أن جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال أن فيه سرا مثل سر تابوت  
العهد عند اليهود .

فلما استفحل أمر المختار فى الكوفة ودان له العراق ، أصبحت  
الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك فى الشام ومصر ، والمختار فى العراق  
والكوفة ، وعبد الله بن الزبير فى الحجاز . وغضب عبد الله على المختار  
لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة أخيه مصعب بن الزبير ، فقتلوه  
ودانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبنى أمية غير الشام ومصر

ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث أن حمل على مصعب فى العراق بجند  
كثيف فقتله سنة ٧١ هـ . واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز  
ففتح المدينة ، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى فى جند لفتح مكة  
وفيهما عبد الله بن الزبير ، فحاصرها وطلب الى عبد الله أن يسلم فأبى .  
فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور فى مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله

ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية



## عزة الميلاء وليل الأخيلة

المدينة أو « يثرب » هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق ، وهي واقعة في منبسط من الأرض تكتنفها الآجام والفياض ، وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل . وقد عمرت في صدر الإسلام ، حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من أهلها لكثرة الفتن والحروب في أيامه ، ولكنها ما زالت أهلة بالناس ، وفيها أهل البيت

وكان من أهل المدينة في أواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها « عزة الميلاء » . وكانت مولاة للأنصار ، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت « الميلاء » لتماثلها في مشيتها لغرط سمنها . وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه ، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقيّة آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس أن يراها ويسمع غناءها

وكان العرب يومئذ لا يبعدون الغناء من الصنائع اللاتقة بأهل الشرف ، على أن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء في حفل عام ، أنصت لها الحاضرون وكان الطير على رؤوسهم

وكانت دارها في أقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشام ، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة . وفي بعض جوانب البستان حظيرة مبنية من سعف النخل توضع فيها الدواب . وللدار باحة كبيرة في كل من جانبيها غرفتان ، وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفي باحة الدار نخلات متقاربة تظل الباحة في أثناء النهار .

ففي يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة ( وهو يوافق شهر أغسطس سنة ٦٩٣ م ) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها . وكان يوما شديداً الحر ، والحر ثقيل هناك للرطوبة الكثيفة مما يتصاعد من أبخرة المستنقعات والأشجار . فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى

مخدعها فأخرجت قارورة من الطيب فتطيبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت  
ملءة معصرة لونها أصفر زاه ، وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر  
مع خلو المكان من الرجال ، وأرادت أن تتناول عشاءها على سطح البيت  
تحت قبة السماء

وكانت يومئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد ترايد سنها وذهبت  
استدارة وجهها وارتخى خذاها واستطلا إلى أسفل الذقن ، وثقل بدننها  
حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها . وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس  
يفدون عليها لسماع غنائها أو ضرب عودها ويحملون اليها الاموال  
والهدايا من الحلى والجواهر ، حتى ملأت معصمها بالاساور والدمالج  
وطوقت عنقها بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ،  
وعلقت في اذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم اذنيها لأنها كانت  
كبيرتهما مع تناسب التكاسير . وكذلك أذان أهل الغناء والموسيقى في  
العالم

وكان الرجل من أهل الوجاهة اذا أراد الزواج بفتاة لا يعرفها استشار  
عزة ووسطها في خطبتها أو استطلاع مدى جمالها وصحتها

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها  
فتاة من نزالة المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها . وكانت  
الفتاة تروح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في أمرها ، وقد  
جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة  
صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها افرادا لا ترى جالا ياهرا ،  
ولكن في عينيها ما يدل على الدكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ  
بالقول ، حتى كانت وهي في أشد اضطرابها قلما تبدل الكتابة في وجهها ،  
وربما زاد ذلك في هيبتها . وفي ذقتها اندفاع قليل الى الامام مع بروز ،  
وهو دليل الانعطاف ، وفي أنفها ذلف قليل يزيدها مهابة . وكانت في  
نحو الثالثة والعشرين من عمرها

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح امرت جارية لها ان تفرشه  
بالأبسطه وتعدعليه المائدة ، وامسكت ضيفتها بيدها وقالت لها مداعبة :  
« هلم بنا الى السطح ياسمية واتركى الهموم جانباً ، وتعالى لأريك  
يشرب وضواحيها من سطح بيتي فانها من أجل ما يكون ، ولا تعجل في  
العودة الى بيتكم فما أظن أباك قد عاد اليه بعد »

فمشيت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان ما يجول  
في خاطرها من دواعي الهموم ، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز  
تحت قدمي عزة ، حتى وصلت الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد  
المائدة . فجلست عزة واجلست سمية الى جانبها ، ولا حظت انها

ما زالت مضطربة البال فأرادت أن تصرف ذهنها إلى شيء آخر فلم تر خيراً من أن توجه التفاتها إلى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها : « تأملى يا بنية في هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لا يقف في آخرها الا على التلال البعيدة ، ولا سيما هذا الجبل ، وهو جبل أحد الذي جرت فيه الواقعة الشهيرة بين النبی ( صلعم ) وقريش . وذكر هذه الواقعة يؤلنى لان الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلاً وأصيب النبی بجراح وقتل عمه حزة »

فقالت سمية : « وهل شهدت تلك الواقعة ؟ »

قالت : « كلا ، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها ؟ » . ثم عادت إلى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : « واني لبعجبني مناظر المياه حوالى غروب الشمس ، انظرى إلى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة الالامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شواطئها مقبولة كأنها مرده من الجان غائصون في الماء »

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد أرسلت أشعتها منحرفة على تلك المفارس فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام

وأما سمية فكانت تسابير عزة فيما تقول وبصرها شائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور . وكان سطح البحيرة بعد أن غابت الشمس مازال يلمع بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرأى غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار



اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعام ودعت سمية إلى مشاركتها فيه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتأكل وعيناها شاخصتان إلى تلك المناظر ، ثم عادت عزة إلى محادثتها فقالت لها : « مالي أراك صامئة باسمية ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين أن ينقم عليك أبوك لهذا ؟ ، انه اذا علم أنك عند عزة قلن يلومك »

وتوقعت عزة أن تسمع من سمية جواباً ، ولكنها رأتها تحدق النظر في تلك البحيرة ، وأنست في وجهها بغثة وقد توقفت عن المضغ واللقمة لاتزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها ،

فاجابتها سمية وهى تشير بيدها الى البحيرة : « كانى ارى النخيل  
تنتقل فى الماء .. ماهذا .. ؟ ماذا ارى ؟ »

فالتفتت عزة الى جهة البحيرة فرأت ظلالا تتحرك فى الماء بين ظلال  
النخيل ، ولكنها لم تر الاشباح على الجرف لان الظلام حجبها بينما  
انعكاس الشفق على سطح الماء ابداهها فقالت : « انك ترين ظل شبح  
سائر بجانب البحيرة » . وتفرست عزة قليلا ثم قالت : « ان الذى  
نراه ظل شبحين اظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ،  
لا بل هما جلان وغليهما رجلان . اليس كذلك ؟ »

قالت سمية : « بلى ، هما جلان . ويخيل الى انهما ماشيان على  
سطح الماء ! »

فضحكت عزة وقالت : « انك ترين ظليهما يا بنية ، وارى الان شبحا  
ثالثا اظنه جلانا ثالثا » . ولم يمض قليل حتى توارت الاشباح فقالت  
عزة : « لا تقلقى ، ليس ما ترين الا اناسا اظنهم قادمين الى المدينة من  
دمشق ، وما هذه اول مرة رايت مثل هذا المنظر ، فعودى الى طعامك  
فقد برد الهواء وانفثت حاة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام اسمعك  
صوتا تلقنته عن استاذتى رائقة »

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى  
تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفت عزة فجاء رجل فى نحو  
الستين من عمره ما زالت اثار الجمال بادية فيه ، وهو نظيف الثوب  
حسن الهندام . فلما رآته سمية غطت وجهها ، فضحكت عزة وقالت :  
« اتحجبين من مخنث ؟ » . ولم تكن سمية قد عرفتة فى الظلام

وكان فى المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء ،  
وأكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه . وكان من اراد خطبة امرأة سأل  
عنها أحد المخنثين فيصفها له ، ثم يتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها .  
وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليستفيدوا  
منها تعلم الاصوات

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت : « ما جاء بك يا طويس ؟ »

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : « أطويس هذا ؟ »

قالت : « هو بعينه ، ولا تعجبى من أنه جاء على غير موعد فان ذلك  
دأبه معنا » . ثم التفتت اليه وقالت : « يا طويس قل للجارية تضىء  
لنا الشموع فأتنا سننزل بعد قليل »

قال : « أفعل ذلك بشرط »

قالت : « وما هو ؟ »



قال : « تغنين لى شعرا على الهزج »  
 قالت : « أطلب أن أغنى لك الهزج وانت أهزج الناس ؟ الا سألتنى  
 أن أغنى من الثقيل أو الرمل ؟ »  
 قال : « لا أبالى أى صوت وانما أقترح عليك شعرا تغنيه »  
 قالت « أفعّل ان شاء الله ، ولكنى أخاف من وجهك فانه مشثوم »  
 قال : « وأكثر من مشثوم ، فان أمى ولدتنى ليلة قبض النبى  
 ( صلعم ) . وفطمت ليلة مات أبو بكر ، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر ،  
 وزففت الى أهلى ليلة قتل عثمان ، وولد لى يوم قتل على ! »  
 فضحكت عزة لحفة روحه وقالت له : « أرجو ألا يكمل شؤمك علينا  
 الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك »



نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المدة  
 لاستقبال الأضياف . وجلست عزة على مقعد ، والأرض مغروشة  
 بالطنافس وحولها الوسائد وقد أوقدت فيها الشموع . وجلست  
 سمية بجانبها وعادت الى هواجسها . وأما طويس فانه تناول دفا  
 مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الأعواد والمزاهر والدخوف ،  
 ورماه فى حجر عزة

فقالت : « وىلك ! ماذا تريد ؟ »

قال : « بأبى أنت وأمى . أريد أن أسمع غناءك »

قالت « تمهل يا طويس ريثما أستريح »

وفيما هى تكلمه سمعت هدير الجمال يقرب باب البستان فقالت :  
 « أنظر يا طويس من جاءنا الليلة . . انى أخشى أن يكون شؤمك قد  
 وصل إلينا »

قالت سمية : « وى شؤم تخافين ونحن فى أمان ؟ ! »

قالت وقد خفضت صوتها : « ما أظننا فى أمان وأميرنا اليوم يأكل  
 المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله ( صلعم ) . اذهب يا طويس  
 وأنظر من القادم »

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما ، ومشى وهو يتظاهر بالمجون فى  
 مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب  
 وأطل منها ، فرأى جلين بجانبهما رجلان : أحدهما قد تلثم بالكوفية

والتف بالعبادة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه أن يكون خادما . فقال  
لهما : « من أنتما وماذا تريدان ؟ »

فأجاباه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : « اليس هذا بيت  
عزة الميلاء ؟ »

قال : « بلى وماذا تريد منها ؟ »

قال : « أريد الدخول إليها »

قال : « ومن أنت ؟ ألا انتسبت ؟ »

قال : « لا انتسب »

قال : « أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟ ! »

قال : « نعم »

قال : « دعنى أستاذن لك » . وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما  
رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة : « دعينى  
انصرف الى أبى فقد طال مكثى عندك اليوم ، ولا سيما انى أرى رجلا  
قادمين اليك ولا يليق بى البقاء معهم »

قالت : « لك الخيار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلى الغياب ،  
وليكن خروجك من الباب الخلفى للدار ، وذهابك من الطريق القريب  
الذى تعرفينه » . فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره  
حتى توارت عنه ، ثم التف الى عزة وأشار بضم أنامله وزم شفثيه  
الى أنها جيلة . فأومأت اليه أن يصمت ثم قالت : « أخرج الى الطارق  
وأطلب اليه أن يريك وجهه أو يذكر لك اسمه »

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : « ان صاحبنا  
من أهل البادية ويهوى الفناء ، وقد جاء لسباع عزة الميلاء ، وقد سألته  
عن اسمه فأبى أن يخبرنى به ، ولما ألححت عليه قال انه لا يقول اسمه  
ولكنه أنشدنى هذين البيتين :

وذى حاجة قلنا له لا تبج بها فليس اليها ما حييت سبيل  
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لآخرى صاحب وخلي  
« وطلب ان أخبرك أنه قاتلهما »

فلما سمعت عزة قول طويس بفتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنها  
لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس : « ما بفتك  
يا عزة ؟ »

قالت : « ألا تعرف قاتل هذا الشعر ؟ »

قال : « كلا . . . ومن هو ؟ »

قالت : « لو انى سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان في غير هذا الشعر . ألم تر انه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل اهل بهرا ؟ »  
قال : « أظننى لحظت ذلك فيه ، ولكن ماذا في هذا ؟ »

قالت : « ويك ! هذه ليلى الاخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهى تكسر حرف المضارعة في لفظها أيضا »

قال طويس : « اذا كانت هذه هى ليلى فقد تم حظنا ، لانى أسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذى كان يهواها ، فهل أدموها ؟ »

قالت : « كيف لا وهى صديقتى ويندر أن تنزل الى المدن الا الحاجة ماسة لأنها تقطن البادية »

فأسرع طويس مهرولا حتى أتى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهى ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لأنها كانت ما زالت ملتمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها أن يدخل الجميلين الى الحظيرة ومشيت تخطر في مشيتها وطويس يمشى وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها والثام محيط برأسها ووجهها جميعا

فلما أقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهى تقول : « مرحبا بليلى ، اهلا بك يا حبيبة . لقد بالفت في الاختفاء حتى أسانا معاملتك وأخرناك » . قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وئنتها وأجلستها عليها

فقالت ليلى بصوتها الجهورى الذى لا يكاد يشبه الأصوات النساء : « لا بأس عليك ، وإن لم يكن ذلك ذنبى لانى كنت أحسبك تعرفيننى من صوتى ولهجة كلامى »

كان طويس واقفا بالباب يشوق لرؤية وجه ليلى ولكنها بقيت ملتمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه لتخلو الى مزة . فادركت هذه مافى نفسها فقالت : « لاتحتجبنى يا ليلى منه ، انه طويس المغنى »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وأزاحت الثام وهى تقول : « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا ببقياه ! »

فلما أزاحت النقاب بان تحتة وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان ، وغفر حسن ، وآثار الصحة بادية في وجهها من سكنى البر . فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشى نحو البساط الذى كانت هى جالسة عليه : « ان سرورى تم ببقياك أيتها الشاعرة البارة . وقد كنت أعجب لما أسمعه من شغف توبة بك

واشادته في الاشعار بذكرك وانت زوجة لسواه . فلما رأيت هذا الوجه علمت السر الذي دعاه الى ذلك »

فلما سمعت ليلي اسم توبة علا وجهها الاحرار وكأنها خجلت وطاقات رأسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « وهل سمعت شيئا من قوله ؟ »

قال : « سمعت كثيرا ، ولكنني اذكر هذه الأبيات فقط :

ولو أن ليلي الأخيلينة سلمت علي ودوني جنبدل وصفائح  
لسلمت تسليم البشاشة ، أو رقا اليها صدى من جانب القبر صائح  
وأغبط من ليلي بما لا أناله الا كل ما قوت به العين صالح  
ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلي . وأدركت عزة ذلك فيها  
فأجبت الترفيه عنها فدمتها الى الطعام والغسل ، فشكرتها وذكرت  
أنها لا تحتاج الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع  
حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف

فقالت عزة : « لعلك قادمة من الشام ؟ »

قالت : « نعم وقد وصلت الى المدينة الساعة ، وكان معي رفيق  
خليتي في مكان وجئت اليك على أن أعود اليه عاجلا »

فتذكرت عزة الأشباح التي رأتها وسمية على شاطئ تلك البحيرة  
فقالت : « أظنني رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل »

قالت : « كنا ثلاثة وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جالنا »



## حكاية ليلي مع توبة

فايقنت عزة أنها هي التي كانت مع الركب ، وقالت تداعبها :  
« اتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلي : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « اعرف أنك تحبين توبة ، واسمع انه شاب جميل شجاع ،  
وأنه يحبك . فكيف تزوج غيرك وتزوجت أنت غيره ؟ »

فقالت ليلي وقد زاد احمرار وجهها : « دعينا يا عزة من هذا الحديث ،  
واسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق »

فلم تشأ عزة أن تلخ عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت : « صدقت  
ان الذكري تؤلم » . ثم التفتت الى طويس وقالت : « هات الدف »  
فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكنيت اذا ما جئت ليلي تبرقت فقد رابني منها الغداة سفورها  
على دماء البدن ان كان بعلها يرى لي ذنبا غير اتي ازورها  
ولم تتم هذين البيتين حتى تعلمت ليلي وامتنع لونها وقالت :  
« ما هذا يا عزة ؟ اراك تلحين لتعلمي سبب فراقى توبة »

فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول : « وما لهذا الشعر ولك ؟ هل  
توبة قاله فيك ؟ »

قالت : « اتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثي مع توبة  
فساقصه عليك وان كان ذكره يؤلمني . اعلمي يا اخية ان عادتنا نحن  
معاشر البدو غير عادات الحضرة اهل المدن امثالكم . فان الرجل منكم  
اذا احب فتاة تزوجها . واحسن الزواج ما يكون على حب . واما نحن  
فاذا عرف اهل الفتاة ان شابا يحبها وتجه منعوه منها ، وهذا ما وقع  
لي مع توبة فانه كان يحبني ويقول في الشعر ، فلما خطبني الى ابي ،  
رفض أن يزوجني به ، وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى  
الآن ، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم اهدروا دم توبة ومكنوا له في الموضع  
الذي يلتقاني فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله . وكنيت اذا جاءني قبل  
ذلك تبرقت واحتجبت منه على عادتنا . ففكرت في حيلة احذر بها

غدرهم بحيث لا يشعرون ، فلم أر خيراً من أن أغير عادتي معه فلما جاءني في ذلك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه . فلما رأيته على تلك الحال فطن لما أردت وركض فرسه فنجأ ثم نظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

ناتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريها  
« ومنها البيتان اللذان غنيتهما . وهي طويلة »



وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولكنها أرادت أن يسمعها طويس . فلما فرغت ليلي من حديثها قالت عزة : « انى لم أكن أجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتكم من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفينى بنفسك . فبالله إلا ذكرت لى سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على أنفة وعفة تندران فى المدن »

قالت : « صدقت ، ان العفة والحب للثقى انما يكونان فى اهل البادية ، وبنو عذرة اهل وادى القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالباً فيهم . وقد قلت ان توبة كان يحبني واحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى رية ، ولكنى اجتمعت به مرة بعد ان تزوجت وتزوج ، فقال لى كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الامر فقلت له :

وذى حاجة قلنا له لا تبج بها فليس اليها ما حيت سبيل  
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وانت لآخرى صاحب وخليل  
« فلم أعد أسمع منه رية قط »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقى ثم قال : « ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثى المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكنى لا احبها ! »  
فقالت له ليلي : « اذا شأقتك ذلك فعليك بوادى القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الأمثال ، وفيهم جيل بشينة ، وكثير عزة ، وغيرهما »

فضحكت عزة ، وراة الرجوع الى الغناء ، فاخذت فيه وهى تنقر الدف ، فطربت ليلي وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عوداً عزفت عليه وغنت ألحانا شجية ، وكانت ليلي فى أثناء الغناء تطرق وتستغرق فى التأمل ، كأنها تفكر فى امر ذى بال ، فلما رأت عزة فرغت من غنائها قالت لها : « لقد أطربتنا يا عزة بغنائك وعندى امر احب أن أسره اليك فهل تسمحين بخلوة ؟ »

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعاً وأغلق الباب وراءه  
واقتربت ليلي من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب  
أن يكون همساً : « أتعرفين رملة بنت الزبير ؟ »  
قالت عزة : « كيف لا أعرفها وهى أخت عبد الله بن الزبير اللائد  
بالحرمين وهو محصور فى الكعبة الآن »  
قالت : « محصور ؟ ومن حصره ؟ »

قالت عزة : « أنه أقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منسذ  
بوفى معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره الا  
بعد مقتل الحسين وموت يزيد ، وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك  
ابن مروان خليفة بنى أمية بدمشق »

قالت ليلي : « أعلم ذلك ، وأعلم أيضا أن أهل الحجاز يابعوه ، وأن  
الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت : « ألم تسمعى بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفى من الحجاز  
بأمر عبد الملك لقتال عبد الله فى مكة ؟ »

قالت : « أظننى سمعت شيئا من ذلك قبل خروجى من الشام »  
قالت عزة : « وقد جاء الحجاج ، ولعلك سمعت بشدة بطشه  
واستبداده ، وقد حاصر عبد الله بن الزبير فى مكة وضيق عليه ، حتى  
خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان »  
فاطرت ليلي وصمتت وكان خاطرا طرا عليها فارجمها عما كانت  
تهم به ، فادركت عزة ذلك فقالت لها : « مالى أراك صامته . . ؟ قولى  
ما فى نفسك »

قالت : « جئت المدينة فى مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن  
حال أخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال . هل هى معه فى  
مكة ؟ »

قالت : « نعم هى معه هناك ، واظنهم فى أشد الضيق من الحصار ،  
وقد قل زادهم ولا ندرى ما يؤول اليه أمرهم »

فتأففت ليلي وتدمرت ثم جعلت تحك ما وراء أذنها وتنظر الى  
البساط بين يديها كأنها تتفرس فى نقوشه وهى لا تتكلم »

فقالت عزة : « قولى يا أخية ما فى نفسك فقد أقلت بخاطرى  
بسكوتك ، ما الذى تريدنيه من رملة وأخيها ؟ »

قالت : « لا أخفى عليك أن أمرا كبيرا من أكبر أمراء بنى أمية  
انتدبنى للبحث عن رملة واستطلاع أحوالها ، لأنه يريد خطبتها ، فلم

أجد من يصف لى جالها سواك لأنك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟  
قالت : « على الجبر وقعت . أما رملة فانها من أحسن النساء خلقا  
وعقلا ودراية . ولكننى أعجب لأقدام أمير من بنى أمية على خطبتها  
والحرب قائمة بين الأمويين وأخيها »

فامسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت : « أخشى أن أصرح بالأسماء  
فأكون قد بحت بسر أؤتمنت عليه »

قالت : « لا تخافى فأنى مستودع أسرار أهل المدينة . وانى أعاهدك  
على كتمان ما تقولينه »

قالت : « أن الأمير الذى يبغى خطبتها أحسن أمراء بنى أمية علما  
وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولح خاص بعلم الكيمياء وهو  
ابن خليفة وحفيد خليفة »

فقطعت عزة كلامها قائلة : « قد عرفته ، انه خالد بن يزيد ، اليس  
هو ؟ »

قالت : « هو بعينه فما قولك ؟ »

فاطرت عزة هنيهة ثم قالت : « قد أدركت سر الأمر ، وعلمت  
السبب الذى سوغ لخالد خطبة رملة وهى من أعداء بنى أمية وأن كان  
هو أمويا »

قالت : « أما وقد فهمت سر الأمر فاكتميه عن كل أحد . وهذه  
هدية من خالد بعث بها اليك » . قالت ذلك ومدت يدها الى كعبها  
وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعتة اليها . فتناولته عزة وأثنت على  
فضلها وقالت : « هل عزمتم على خطبة رملة لخالد ، ومن يخطبها له ؟ »

قالت : « ليس لى أن أصرح بأكثر مما قلت »

فقالت عزة : « ما السر عندى الا فى بشر عميقة ، فطيبى نفسا وقرى  
عيننا »

ثم تحفرت ليلى للقيام فامسكتها عزة ودعتها الى البقاء عندها .  
فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها فى الخارج ، ولا بد لها من موافاته  
لأمر لا يحسن تأجيله . ثم خرجت ، فمرت على طويس فى البستان  
فودعته قبل انصرافها



كانت ليلى الأخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تغد على الملوك  
والأمراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز . وكانت قد وفدت



على عبد الملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فعهد اليها في البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شأبا من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء الشام مع عبد الملك ابن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير وأخرج العراق من سلطة أخيه

وكان حسن من رجال مصعب الداعمين الى بيعة أخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافخ حسن عنه جهده حتى قتل ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقى هناك خالدا فأحبه هذا وحمله من بطانته . وكان يثق به ويوحي له بما في نفسه على عبد الملك لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين أمه وأم عبد الملك حكاية سيأتي ذكرها

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، وأراد خطبتها . فلما جاءته ليلي سألتها عنها فذكرت له أنها لم ترها ، فكلفها أن تستفهم عنها عزة الميلاء في المدينة ، وكتب الى أخيها عبد الله الزبير يخطبها منه ، وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلي وأوصاه إذا أمرته ليلي بالذهاب الى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبدل جهده في اقناعه ، وكان حسن يحب خالدا جدا شديدا فعزم على أن يبدل ما في وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له في المدينة وطريقا الى قضاائه فأسرع مع ليلي حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فخرج هو الى منزل يعكث فيه. ريثما تعود ليلي

أما ليلي فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم أن يذهب بالجمال الى منزل سكيئة بنت الحسين ، على أن توافيه الى هناك . وسارت لمقابلة حسن في الملتقى . فلقيته في انتظارها على مثل الجمر فأخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه أن يسافر الى مكة في المهمة التي جاء من أجلها ودعت له بالتوفيق .



## حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه ، عاوده ماكان يتقد في قلبه من الوجد . وكان يحب فتاة عرفها منذ اعوام واتقدها واباها من الموت في انراق في اثناء القتال ضد المختار بن عبيد ، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها ، فرأى ان يسأل عزة في امرها بوصفها اخبر اهل المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لانزال جالسة وقد خرج طويس من عندها

وكان حسن طويل القامة ، حسن الحلقة ، في وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما أقبل على عزة استقبلته باشة . وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد . على انها استغربت قدومه اليها في آخر الليل

واعترض حسن عن ذلك فقال : « انى قادم اليك في امر اقلقنى وحرمنى المنام وليس لى من يفرج كرى سواك »

قالت : « قل ما بذاك »

قال : « انى احب فتاة من اهل المدينة ولكننى لا اعرف منزلها ولا ادرى امقيمة هى هنا ام سافرت الى بلد آخر ؟ »

قالت : « ما اسمها ؟ »

قال : « اسمها سمية بنت عرفة الثقفى »

فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تتغرمس في وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، ثم قالت : « من اين عرفتها وكيف أحببتها وانت بعيد من المدينة ؟ »

قال : « قولى لى أولا أهى فى المدينة ؟ وهل تعرفينها جيدا ؟ »

قالت : « أعرفها كما أعرف نفسى ، وهى مقيمة هنا وكانت عندى هذا المساء ، فقل لى أين وكيف عرفتها ؟ »

قال : « كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى المراق لقتال المختار بن عبيد الثقفى . وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائد بالحرم الآن . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة التوابين

وهم أهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل  
ندموا وقاموا يطالبون بدمه »

قالت : « نعم أذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة  
محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، وليس لعبد الله بن الزبير »  
قال : « انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله أول الامر ، فلما فاز في  
حروبه طمع في الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية . ولا  
اشك في ان محمدا لم يكلفه بذلك لأنه زعم أشياء لا يرضى بها محمد »

قالت : « اظنك تعنى الكرسي الذى زعم انه كرسي علي ، وصار  
يحملة معه في حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه »

قال : « نعم ، ولكنه لم يفلح لأن عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله  
أرسل أخاه مصعبا في جند كبير فقتلوه وسمروا به في مسجد الكوفة ،  
وكنت أنا في جلة رجال مصعب . ففي يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر  
وأمعنا في رجال المختار قتلنا ونهبنا . لقيت عرفة ابنة سمية طريحا على  
الأرض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته  
قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفها ، فتحرك قلبي نحوها  
تحركا قريبا ، وسمعتها تستنجدني لاتقاذ أبيها من القتل ، فصحت في  
الرجال فابتعدتهم عنه وأوصلته الى مأمته فقبل يدي وشكرني ذاكرا  
انه لا يقدر على مكافأتي . فقلت له : ( لا التمس مكافأة منك الا ان  
تزوجني ابنتك هذه ) . فقال : ( هي جاريتك بين يديك ) . فتواعدنا  
على أن آتى المدينة وأنزوجها . وأتممت امر انتقاذه فأخرجتهما من  
الكوفة وبعثت معهما من أوصلهما الى هنا ، وبقيت أنا هناك وشغلت  
بأمور كثيرة لا محل لذكرها فلم أستطع المجيء الا اليوم »



كان حسن يتكلم وعزة تتناول بعنفها لسماع بقية الحديث . فلما  
وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : « لعلك حسن ؟ »

فبهت وقال : « نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفته منها ، وإنى اهنتك بسمية فانها زينة فتيات المدينة  
وليس أحد يعرف مكنون قلبها غيرى . وقد طالما ذكرت أسمك لى  
وأطلعنى على خضالك وأنت على مروءتك . فتثق بأنها ما زالت على  
ودك ، ولو أنك جئتنا قبل ساعة لوجدتها هنا »

قال : « وهل من سبيل الى رؤيتها ولك على ما يرضيك ؟ »  
فاطرت عزة هنيئة ثم قالت : « لم يكن أهون من ذلك على لولا ان

أباها ضنين بها ، لا ياذن في خروجها من البيت ، إلا نادرا ، وهي انما  
تجئني خلسة في أكثر الاحيان . ولا شك في أنه اذا عرف انها جاءتني  
لمثل ما تريد انت فانه بغضب وربما أساءها وأساءني ، ولا سيما انه  
ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة ، ففي استطاعته أن يتهمني عنده بما  
ينقص على عيشي »

فلبت حسن مدة يفكر في امره ، وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون  
مجيء سمية ، لكنه ما لبث لعظم شوقه أن استسهل كل عسير ، ورأى  
أن يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة أبي سمية . فنهض مودعا  
مرة بعد أن استدلل منها على بيت عر فجة ، فدلته عليه وودعته معتذرة  
من عدم استطاعتها اجابة رغبته في رؤية سمية

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، ثم افاق قبل الفجر وأخذ  
تأهب للذهاب الى بيت عر فجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه وهو  
يفكر في لقاءها ، وشق عليه أنه لا يستطيع مخاطبتها أمام أبيها لكي يثبها  
شوقه وهيامه ، فعزل نفسه بما قد يأتي به القدر من سوانح الفرص ،  
وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل ، والناس يذهبون ويحيئون  
في الطرق وهو لاه عنهم بما قام في خاطره من أمر اللقاء المنتظر بعد  
الغياب الطويل

وكان بيت عر فجة بالقرب من بيت سكيكة بنت الحسين ، وهو اضيّق  
مساحة وأقل فخامة ، فلما وصل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم  
يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف ، وفي  
بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء احمر زاه وليس  
على رأسها نقاب ، وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها اليها  
ووجهها الى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل . ومع انه لم  
ير من وجهها الا صفحة خدها وجانبها من عينها وفمها فانه أدرك انها  
سمية . فندم على دخوله بغتة واستنكف أن ينظر اليها أو يدخل بلا  
استئذان . ولكن الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهورا وقلبه يخفق ،  
والشوق يدفعه الى رؤيتها ، والحياء يدعو الى الرجوع وقرع الباب

ثم غلب عليه الحياء وخاف أن يقع نظرها عليه فتخجل وربما أصابها  
سوء من تأثير البغطة ، فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بطلقة من  
الحديد كانت معلقة في خوخته ولبت ينتظر من يدعو الى الدخول أو من  
يأتي لاستقباله . ثم سمع وقع أقدام في الباحة فعلم أن سمية تمشي  
الى احدي الغرف للاستئثار . وظل واقفا مدة فلم يأت أحد فأعاد القرع  
مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو الباب عرف  
من شدتها وسرعتها انها أقدام رجل . ثم جاءه رجل في نحو الحسين

من عمره قصر القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه ، وهو  
أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه  
مطرف التف به ، وكان خديه حفرتان ، ووجنتيه أكمتان ، وأنفه كتلة  
بارزة في منتصف وجهه . وله عينان غائرتان . ولو قد تغرس فيه  
حسن لتبين من اختلاج اجفانه وعدم استقرار نظره انه من أهل الرياء  
والخيث

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف انه عرفجة أبو خطيبته ،  
فهش له وهو يتوقع أن يعرفه ويرحب به . أما عرفجة فلبث برهة  
ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فضحك حسن وتقدم وألقى  
ألتحية ، فرد عرفجة التحية دون أن يبدو على وجهه ما يدل على أنه  
عرفه ، ثم سئل كأنه ينه أهل بيته الى قادم غريب ، فقال له حسن :  
« أظنك لم تعرفنى يا عماء ؟ »

فلما سمع عرفجة كلامه تكلف الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل  
يقبله ويرحب به ويقول : « أهلا بك يا بنى ، أنت حسن ؟ . من أين  
أيت ؟ » . وأمسكه بيده ودخل به الى الدار وساروا الى غرفة هناك  
يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد أن كاد  
يتميز غيظا مخافا أن يعود من سفرته بخفى حنين . وابتدعه عرفجة  
بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان في حاجة الى طعام .  
فامتدح شاكرا ، وأخبره بأنه قدم المدينة للقياء . فجعل عرفجة يتملقه  
بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبه . فاطمان اليه حسن وأطلعاه على  
شدة شوقه الى سمية . وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو منه من  
استحسان أو استهجان . فلم يجد الا انعطافا وترحابا . وعلم منه أن  
سمية في خير ، وأنها مازالت تذكر فضل عليهما ، فزاد حسن استئناسا  
وتوقع منه أن يدعو سمية لتراه ، فلما لم يدعها ظنه أجل ذلك الى ما بعد  
الاستراحة . واستغرقا في الحديث في شؤون مختلفة حتى ذكر حسن  
أنه جاء المدينة في مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بمكة . ثم  
قال : « ألم يكن لي أن ابلغ أمنيته التي منيت نفسى بها منذ أعوام ؟ »  
فتجاهل عرفجة وقال : « وما هي يا بنى ؟ »

قال : « الزواج من سمية . . خطيبتي »

قال : « هي جاريتك وطوع ارادتك ، ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول ،  
فيحسن أرجاء الامر حتى تعود ، ولا سيما أن سمية ليست هنا الآن ،  
وسأخبرها بقدمك متى عادت ، ولا أشك أنها ستسر بليقائك ، فاذهب  
الآن في مهمتك ، ومتى عدت نعتد قرانكما بأذن الله »

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية في المنزل ، ولكنه التمس

له عذرا وشكر الله على انه رآها خلصة . على انه كان يتوقع وهو يخاطب عرفة أن يسمع خطوات سمية أو يلمح طرف ثوبها وهي مارة أو يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجوارى يخطرن في الدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفة الى الكلام فقال : « متى تعتزم المسير الى مكة يا بنى ؟ »  
قال : « في القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة »

قال : « وهذا ما أراه ، فان سرعة ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسرح حسن بما سمع ولم يفقه ما كان يبدو في عيني عرفة وفي حر كاته من دلائل الحب والغدر - ولم يكن ذلك سداجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس ، يعتقد ان الناس كلهم مثله - هذا الى ان عرفة كان مدينا له بانقاذه من القتل ، وقد رجب بمصاهرته أولا وآخرا . وهكذا اقتنع بما سمع منه فقال : « أرى ان أخرج من المدينة الليلة »

قال : « وهل تعرف الطريق ؟ ومن أى باب تخرج ؟ »

قال : « نعم يامولاى انى خارج من الباب المطل على قباء »

قال : « اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدى الى مكة ، فانه أسهل مسلكا ، ولكننى أخاف عليك من برد الليل فهل اجتطت لذلك ؟ »

قال : « عندي عباءة التف بها اذا برد الليل »

قال وهو يتنسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه : « لا أرى ان تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ، ومن كان مثلك من ذوى الوجهة لا يلبق أن يمر في الأسواق ملتفا بعباءة ، فاسمح لى أن أقدم لك قباء يلبق بمقامك » . قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال : « هات القباء الأخضر المعلق في الحجرة »

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف ، فتناولوه عرفة ودفعه الى حسن وقال له : « اليك هذا القباء فالبسّه وأنت خارج على ناقتك في هذا المساء فانه أوقى لك من البرد »

فتناول حسن القباء شاكرا ، مع انه لا يرى حاجة اليه ، اذ لم ير من اللياقة أن يردّه . وازداد ثقة في عرفة وحسن قصده . ولحظ في حركاته ميلا الى فض الاجتماع ، فنهض وقبل يده مودعا ، وخرج وقبله ما زال في تلك الدار ، وقد شق عليه أن يخرج منها دون أن يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة ،

وساروا الى السوق ليبْتَاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق ولكنه لم يكن يعرف أين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر ويضعه فيها ، وهي أحقرهم أهل المدينة ، فناداه حسن وسأله : « ألا تعرف رجلا يرى النبال قريبا من هنا ؟ » قال : « أعرف كثيرين ، هل تريد النبال المزينة أو التي بلا ريش ؟ » قال : « أنى أفضل المريش منها » قال : « تعال معى فادلك على أحسن من يبيعها في هذه المدينة »



سار حسن في أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الآخر من المدينة ، ووقف به عند حانوت أمامه دكة ، وفي صدر الحانوت رجل من أهل يشرب بين يديه القسي والنبال ، وفيها المبرى بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه أنه من أهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام ، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايمن أو الايسر . وجعل ينتقى ما يريد منه ثم قال للرجل : « هل أجد عندك جعبة للنبال ؟ »

قال : « كلا يا مولاي ، أنى لا اصنع الا النبال ، ولكن جارى جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد أو من الخشب على اشكال مختلفة فإذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها »

فقال : « اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال » . ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسي القباء عند النبال ، وسار والنبال يسير أمامه حتى أوصله الى حانوت واسع فيه جلود واخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت . فرأى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه أنه من أهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة أراد ابتياعها ، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة ، وقد استأنس برؤية ذلك الشاب وتذكر أنه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه ، وهو يستحذ ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بغت وتفرس في سحته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : « حسن ؟ » . قال : « نعم ، وأنت .. سليمان ؟ »

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الخانوق وقد نسييا الجعاب وصاحبها ، فقال سليمان : « من أين أنت قادم يا أخى ، ومتى قدمت ؟ »

قال : « انى قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء أمس »  
قال : « وهل تنوى الإقامة هنا ؟ »

قال : « كلا ، انى عازم على السفر الليلة »  
قال : « لا . لا . انى مشتاق الى رؤيتك ، وقدمضى على بضع سنوات وأنا افكر فيك واتذكر أياما قضيناها فى الكوفة معا ، وقد كانت أياما سعيدة رغم ماشهدناه فيها من القتال »

قال حسن : « لاريب انها كانت سعيدة لكم لانكم فزتم بالامر الذى قعتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين بشر قتلة . اظنك لم تنس عبيد الله ابن زياد وهو مخرج بدمه فى ساحة الحرب »

قال : « وهل اقدر على نسيان ذلك ، انى اذكره كلما شممت رائحة المسك ، لاننى حين شهدت جثة عبيد الله فى الوقعة شممت رائحة المسك قوية ، اذ كان كثير التضمخ بالمسك . ولكننى لم افرح بمقتل ابن زياد فرحى بمقتل ذلك الابرص الذى قطع رأس الحسين بيده »

قال حسن : « اظنك تعنى شمر بن ذى الجوشن قبجه الله ؟ »  
قال : « اياه اعنى . . فقد رايت هذا الجيئ فى معركة اخرى مقتولا وعليه بردة ، وقد عرفته من بياض برصه »

فقال حسن : « انها لذكرى حسنة ، ولكننا لانستطيع الخوض فى هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »

قال سليمان : « هلم الى مكان لنقضى فيه بقية هذا اليوم ، فانى احسبه من أسعد أيامى ، لانه يذكرنى بأيام النصر وان كنا الآن فى . . »  
وقطع كلامه ثلثا يسمعه احد

ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حمله



كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا . وكان مقيما مع ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين . فلما قدم الحسين الكوفة فى اهله كان هو وابوه من الذين تخطفوا عن نصرته . ولما قتل الحسين فى سهل كربلاء وقتل اهله معه أصبح سليمان وابوه من التوابين الذين ندموا على



تخلفهم عن نصره الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ، فلما جاء المختار بن أبي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير ، انضم التوابون اليه فقتلوا قتلة الحسين . ثم طمع المختار في الامر وارسل عبد الله بن الزبير اخاه مصعبا لمحاربته ، وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم الى مصعب ومنهم سليمان وابوه ، وقد اتلف قلبا حسن وسليمان . وكان سليمان يعجب باخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك بن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرقت رجاله ، سار حسن مع عبد الملك ، وجاء سليمان وابوه الى المدينة فاقاما بها

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة انس به سليمان وأحب البقاء معه . فدعاه الى منزله وقال له : « ان ابي يسر بليتك » . فتذكر حسن ابا سليمان فقال : « فانتى ان اسال عن ابيك كيف هو وما الذى يعمله الان ؟ »

قال : « انه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك بن مروان »

قال : « وهل هو يخدمه عن رضى ؟ »

قال : « اراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما اظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين . وكنا بالامس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المتولين ، ولكنى رايتهم راضيا فسكت عنه . ولعل له عدرا »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ، ولم يكن ابوه في البيت فمكثا هناك وتناولوا القداء معا وقد سر كل منهما بلقاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الالهاب لوداع ليلى الاخيلية في بيت سكيانة بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو ان يستطيع مشاهدة سمية لان بيتها بجانب بيت سكيانة

فالح عليه سليمان ان يؤجل سفره الى الغد ، ولكنه اعتذر شاكرا ، فقال سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فانى ارافقك في اوائل الطريق لانك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله . فاذا رضىت برقتى فانى اصاحبك الى العقيق فتمكث هناك ساعة اتملى من حديثك ثم نفترق »

قال حسن : « كيف لا ارضى بذلك وفيه راحتى وحسن حظى »

قال : « اين نلتقى ؟ »

قال حسن : « نلتقى بباب المدينة المؤدى الى مكة ونخرج من هناك معا »

قال : « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال : « نعم أعرفه فإنه على مقربة من حانوت النبال الذى اشتريت هذه النبال منه اليوم »

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : « لقد نسيت عنده القباء ، وبخاف اذا أردت الذهاب إليه أن تفوت الفرصة بشاهدة ليلى »

فابتدعه سليمان قائلا : « دع هذا لى ، فانا أمر بالنبال وأخذ القباء منه وأحفظه لك الى اللتقى »

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فसार كل فى طريقه



وكانت سمية جالسة فى ساحة بيتها حين قرع حسن الباب ، فدفق قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها ، ثم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكى تحتجب عن الطارق ، فانزوت فى أقرب غرفة الى الباب وفى نفسها ميل الى معرفة الطارق ، لأن طريقة دق الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين . وكثيرا ما تدل الدقة على صاحبها ويعلم أهل البيت من هو صديقهم من قرعه الباب . هذا الى ان عرفة كان من أكثر الأبناء تضييقا على بناتهم فى أمر الحجاب . فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ أو ثغوب الابواب

وافتق فى ذلك الصباح انه لم يكن فى البيت أحد من الرجال غير عرفة وكان مشغولا فى حجرة خاصة لا يدخلها أحد غيره ، وفيها محفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ولا يدري أهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضى فيها ساعة أو بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيرا ما أحبت سمية استطلاع أمر تلك المحفة ومشاهدة ما فى داخلها فلم توفق الى ذلك . لأن المحفة من خشب متين لامناذ البصر فيه . فلما قرع حسن الباب كان عرفة هناك فابطأ فى فتح الباب كما تقدم . ثم سمعته بعد أن فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، وكانت تنظر من ثقب فى باب غرفتها يطل على حجرة أبيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهى أول مرة رآته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكذ تتحققه حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خوفا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه ، ورات اباه يخطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملاحه لأنها لم تكن تفهم الكلام بعد المسافة ، ثم دخلا وأقفلا الباب . فارسلت جارية لها تسمع

حديثهما وتعود اليها بما سمعته . والجواري أكثر الناس رغبة في نقل  
الإحاديث وبخاصة إذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية  
تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان أو الباحة فتقف هناك  
بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها  
وتعود الى سمية به . فاطلمت سمية بذلك على مآذار بينهما حرفيا .  
وساءها رفض أبيها أن يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب ، ولكنها  
سرت برؤيته وأطمأنت الى أنه ما زال على حبها . ولما أخبرتها الجارية  
أنه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها واصطكت ركبناها ولم تعد  
تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعينها  
على شق الباب . على أنها ما لبثت أن علمت أنه غير الحديث واعتزم  
الخروج من المدينة في تلك الليلة ، وإن أباهما حب اليه الاسراع في ذلك  
واعطاه القباء . فاستغربت إعطائه إياه . مع ما تعلم من بخله . على أن  
ذلك أكد لها رضاه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب  
اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعه مرفجة لوداعه ، طارت عينها شعاعا الى  
حسن ، ولكنه ما لبث أن غاب عن مبدى بصرها من ذلك الثقب . فلما  
رأت أباهما راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاهما من  
عظم التأثير وبانت دلائل الحب في وجهها . فلما رآها مرفجة في تلك  
الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه في شغل عن الحديث معها

ولكنها لم تصبر على استطلاع أفكاره وأمسكت عن الكلام تهيبا لأنها  
كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الأمور الضعاب ، على  
أنها كانت تحسن الظن به فتحولت الى خجرتها وهي منقبضة النفس  
ودخل مرفجة حجرة أخرى وقد لحظ ما في نفس ابنته ولم يفته اطلاعها  
على مآذيرينه وبين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس في المكان سواهما  
فوقفت وقلها يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى أبيها ولا تدرى ما يريد  
منها . فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهي تتشافل  
بمداعبة أطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة في طرة  
أشتهرت في المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى بيكينة بنت  
الحسين لأنها أول من صفرها على تلك الصورة

لبثت سمية برهة هكذا ، وأبوها ينظر اليها ويتأمل في خمر كاتها فلم  
يزد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لا يحب أن يتقرب منه ، ولكنه  
لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على أنه كثيرا ما حاول أن يزوجهما بسواه  
فلم تقبل . وكان قد ظن حسنا مات أو قتل لغيبه عن المدينة ، أو عدل  
عنها وأشتغل بغيرها . فلما رآه في ذلك الصباح وتحقق أنه ما زال حيا

بغت واستعاذ بالله ، ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناؤه وأظهر له ما أظهره من اللطف والانس على أمل أن يفتك به غيلة . فلما رأى اضطراب سمية قال لها : « أراك مضطربة ، فما الذى دعاك الى هذا ؟ »

قالت وهى لاتزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره « وأى اضطراب تعنى ؟ »

قال : « اعنى ما يبدو فى وجهك من الاحمرار على اثر الاصفرار . وكأني أسمع دقات قلبك . فما هذا ؟ » قال ذلك بنغمة رقيقة رفقا بها واجتياالا فى استطلاع سرها ، وقد كان يحب رضاءها ولكنه لا يريد أن تعمل عملا تستقل به عنه . وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان هو يريد أن يتجر بذلك الجمال فيزوجها بحاكم أو أمير فيكتسب بزواجها منصبا أو مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس اذ ليس فى البشر من لا يحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس ، أما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فإنه يكون وبالا على الناس ، لأن صاحبه لا يبالي بما قد يضحيه من الانفس أو الاعراض فى سبيل نيل أغراضه . وكان عرفة ذا مطامع لاحت لها وكان ذلك شأن كثيرين فى ذلك العهد على أثر تززع أركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك ، وذلك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية ، وآخر الى بيعة عبد الله بن الزبير ، فضلا عن دعاة آخرين فى البلاد الأخرى . فأصبح الامر قوضى وربما خطر لمر فجة أن يدعو الى أحد هؤلاء أو غيرهم ، ولو أتيح له أن يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع فى ذلك وهو من ثقيف وهم غير أكفاء للقرشين . وكان الحجاج والمختار بن أبى عبيد ثقفين أيضا ، فلما أراد المختار أن يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا



لما سمعت سمية سؤال أبيها ولم تر فيه نعمة الجفاء أجابت وهى تكاذ تدوب خجلا : « أتسألنى يا سيدى عما أنت أعلم الناس به ؟ »

فقال وهو يغضب الضحك اغتصابا : « أظنك تحبين هذا الشاب ؟ »

قالت : « لا أقول انى احبه ولكننى أعلم فضله علينا لأنه أتقنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفى بالوعد ؟ »

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهى تنظر فى وجه أبيها متوقعة أن

يكون جوابه الاذعان الصريح . ولكنها رآته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه ، وأخذ يلعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : « ما شاء الله ! وأى فضل تعنين ياسمية ؟ »

قالت : « ألم ينقلنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة . ألم أخرج إليه محاولة الشعر وأطلب نجاتك فأسرع لاتقاذك ؟ . ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن » . قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فإذا هو قد تغيرت سحنه وبان الشر في عينيه وكان بيده مفتاح الحجر فرمى به الى الارض من شدة الغيظ وقال : « لا أقدر على سماع هذا الكلام . ان الذي يدعى علينا مثل هذا الفضل يجب ان يموت »

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدنهما وامتقع لونهما ، ونظرت الى أبيها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولا تصدق انه يعني ما يقول . ولكنها ما لبثت ان رآته نهض وجعل يتمشى في أرض الحجر ولحيته ترقص أمام عنقه وعيناه محمقتان وأنامله ترتجف . فتهيبت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لاتحرك ساكنا ولسان حالها يقول : « ويلك يا ظالم »

اما هو فبعد ان تمشى هنيئة عاد فوقف أمامها وقال لها : « لو كنت تحبين أباك . ما رضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا ؟ . لاشك انك تحبينه أكثر مما تحبيننى ؟ »

فقالت والبكاء يخنق صوتها : « كيف تقول ذلك يا ابتاه ، وأنت تعلم قلبي وتعلم انى لا أحب أحدا سواك . واما هذا الشاب فان له علينا فضلا لا ينكر - هل نسيت الخطر الذى كنا فيه وكيف انقلدنا وعنى بارسالنا الى هنا ؟ . ثم انك انت الذى وعدته بى ، فإذا كنت أحبه فانما أنت الذى دعوتنى الى ذلك و . . . »

فقطع عر فجة كلامها وقال : « ابلغت بك القحة الى أن تقولى لى انك تحبينه وتعيدي ذكر جيله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! »

فاضطربت سمية ، وجثت عند قدمى أبيها والدمع يتساقط من خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت : « رحماك ياسيدى ، بالله لاتذكر القتل . دعه لاتقتله ولا تزوجنى به . . . فاننا لا أخرج عن طاعتك في أمر من الامور . لاتذكر القتل لانه يقطع قلبي . افعل بى ما تشاء فانى طوع لك . اشفق على وارحنى »

فلما سمع تدللها ظنها ارعوت عن محبة حسن ، فامسكها وانهضها ومسح دموعها وقال لها : « خفى عنك يابنية وكونى حكيمة عاقلة ،

وانبذى أمر هذا الغلام وأرجعى الى أبيك ، واعلمى انى لا أفعلا الا ما فيه  
سعادتك »

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فأنكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : « يظهر أنك كنت فى جهالة عمياء . والحمد لله على أنك أدركت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على أبوك ؟ . اليس ذلك منتهى الذلل والضعف ؟ . كيف أقدر على حفظ منزلتى بين الناس وفى الدنيا رجل يقول انه أنقذنى من الموت وله على فضل ؟ »

فظلت سمية صامئة مخافة أن يعود أبوها الى ذكر القتل ، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لأهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الإيقاع بالمحسنين اليهم لأن تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله — وكان عرفجة واحدا منهم — وتلك غاية الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيرا من السبوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن ، وتعلق ذهنها بالسعى فى تحذيره . وكانت تفكر فى ذلك وهى متكئة على صدر أبيها وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : « قومى يا سمية وأرجعى الى رشذك فانى سازورك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن لتعلمى انى انما أسأتك باقوالى لأحسن اليك بأفعالى »

فنهضت ومشت وهى صامئة تمسح عينيها بكفها حتى أتت حجرتها فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذى يهدد خطيبتها فأظلمت الدنيا فى عينيها وأطلقت لدمعها العنان ، ثم استرجعت رشدها وفكرت فى أمرها وأمر أبيها وما تعرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجى نفسها قائلة : « كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفى تعلقى به خطر على حياتى وحياته ؟ . اليس هذا أبى الذى ربانى وكفلنى ولا يريد لى الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه وأطيع هواى ؟ اليس من التعقل أن أنصاع لرايه ؟ . أما حسن فماذا يربطنى به ؟ . الحب ؟ وما معنى الحب ؟ . ان هذا الحب سبب عذابى وعذاب أبى وعذاب حبيبى . لا . الحب عذابه عذب . أه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين . . كيف يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟ . انى لا أرى فى العيش لذة الا حين أفكر فى حسن . أه ما اللطف هذا الاسم . ولكن كثيرا ما كنت

اسمعه قبل أن أعرف الحب فلا التذ لفظه كما التذ الآن . فانا انما  
أتلذ بالحب . آه ما أحلاه وما أحلى لفظه بغمى وذكره بفكرى وما أحلى  
صورته فى عينى ! »

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهى تفكر فى أبيها وقالت :  
« ولكن أبى ربانى بعد وفاة أمى وبقي وحده لم يتزوج من أجلي وهو  
يجبنى ويريد سعادتى فكيف أغضبه ؟ »

ثم قالت : « لا .. انه خرج فى معاملته عن حقوق الابوة ، ان الحسن  
فضلاً كبيراً علينا . ولكن أبى تنكر له ، بل أراد قتله من أجل ذلك  
الفضل . أرا دقتل حسن ؟ ! ان أبى ظالم ، والظالم لا يحب الله فكيف  
أحبه أنا ؟ . اما حسن فشهم تغانى فى سبيل نجاتنا ويكفى انه يجبنى  
وانى أحبه حبا عذرياً تقياً لا عيب فيه . يا الهى ما هذا الحب ؟ . اذا كنت  
ترى انى أخطئ فيما أقول فانزع حب هذا الشاب من قلبى . لا ..  
لا تنزعه .. أو انزعه يا الهى .. أو كما تشاء .. آه مالى ازداد تعلقاً  
وهياماً ؟ الله هو الذى أراد أن يحب أحدنا الآخر ، والحب الذى يكون  
خالياً من الدنس وغايته شريفة . انما هو من عند الله »

قضت سمية ساعة فى مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته  
من تهديد أبيها فخافت أن يتمكن من حسن وهو غافل فرائت أن عليها  
أن تحلره حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً

وحدثتها نفسها أن تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن  
ذلك . على أنها أصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكوله ما فى قلبها  
ويتماهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة  
فى تلك الليلة ، وانه خارج حوالى الغروب من الباب المؤدى الى مكة  
فعمت على اغتنام فرصة اشتغال أبيها ، لكى تخرج وتقف له فى الطريق  
وتخاطبه

اما عرفة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينة يومئذ  
صدقة . وكان طارق يكرم عرفة لأنه ثقفى من قبيلة الحجاج ، وكان  
الحجاج لذلك قد أوصاه به خيراً ، ولأنه كان قد عرف سمية وطلب  
الاقتران بها فومده عرفة بذلك ولكنه استنهمله ريشما يسترضيها .  
ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك بالكره مخافة أن تشكوه الى  
الخليقة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلى عنها كما اتفق له مع عبدالله  
ابن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم أمره عبد الملك  
مروان بطلاقها . وولية الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر  
ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخسمائة ألف فى العلانية ، فاجابه  
الى ذلك وحلها اليه فأقامت عنده ثمانية أشهر ، ثم خرج عبد الله بن

جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فاتاه الوليد بن عبد الملك ( ابن الخليفة ) على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : « لكنك انت لامرحبا بك ولا أهلا » . قال عبد الله : « مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك » . قال : « بلى والله وبشر منها » . قال : « وفيم ذلك ؟ » . قال : « لأنك عمدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » . قال : « وفي هذا عتبت على يا ابن أخي ؟ » . قال : « نعم » . فقال عبد الله : « والله ما أحق الناس ألا يلومنى في هذا الا أنت وأبوك ، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحى ويعرفون حقى ، أما أنتما فمئتمنانى رفدكما حتى ركبني الدين . اما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه . انما فديت بها رقبتي » . فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على أبيه فقال له عبد الملك : « مالك يا أبا العباس ؟ » . قال : « انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف ! » . وقصر عليه الخبر . فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه الا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ، ففعل . وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية أن تشكوه الى عبد الملك بواسطة سكينه بنت الحسين ، لعلمه انها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك



وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جله وراءه ، قاصدا الى بيت سكينه ، ولما اشرف على بيت عرفجة اختلج قلبه في صدره ، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهى محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثه في غيابه . وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة خاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه وظل برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار بن أبى عبيد في أثناء حربه في العراق ، فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عندما سمع بعزمه على المدينة رغبة منه في الاقتراب من أهله في الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية .



فلما رأى سيده واقفا مبهورا استغرب ذلك منه فخطبه قائلا : « ما بال مولاي ؟ هل يفكر في أمر نسيه فأقضيته ؟ »

فانتبه حسن لنفسه واستحي من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة ، فلاح له أن يستخدمه في ذلك لعله يأتي بفائدة فقال : « أتعرف عرفجة ؟ »

فاجاب عبد الله : ولم يصبر الى اتمام السؤال وقال : « كيف لا اعرفه وهو ابو سمية »

فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده لراى الاضطراب ظاهرا في محياه ، ولكنه لم يكن يتفكر في وجهه لفرط احترامه له . أما حسن فقال : « وهل تعرف سمية ؟ »

فضحك عبد الله وقال : « كيف لا اعرفها وهي من قبيلتي ؟ » قال : « وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »

قال : « كلا » ، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها ، وقد اتفق لى انى رايتها غير مرة يوم كنا في العراق »

فسر حسن بهذه المصادفة وأراد أن يستخدم عبد الله في البحث عن سمية أو مخابرتها فقال : « اذن اسمع يا عبد الله ، أريد أن أرسلك الى سمية في مهمة فهل تذهب ؟ » قال : « لك الأمر وعلى الطاعة »

فأعجب بلطف تعبيره وقال له : « بورك فيك يا عبد الله فاعلم انى قدمت في هذا الصباح الى عرفجة ، وقضيت معه ساعة ، ولم أتمكن من مشاهدة سمية لأنها كانت مشغولة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندرى متى نعود فهل أخرج من المدينة قبل أن أراها ؟ »

قال : « كلا بل يجب أن تراها وتخطبها . هل أسألك موعدا للقاء ؟ »

قال : « لا تستعجل يا عبد الله . فانى أخاف أن يغضب أبوها اذا اطلع على ذلك لانى سمعت بصرامته في تحجبها ، فلا يليق بى أن أراها خلسة بعد أن خطبتها »

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال : « مادامت خطيبتك فلا بأس من رؤيتها وان لم يعلم أبوها . أتأذن لى في الدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فأحتال لابلأغها موعدك ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ، ولكن رغبته في رؤية سمية هونت عليه ذلك فقال : « انى ذاهب الى منزل سكيئة ، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه ، فقل لها أن توافينى الى هناك »

قال : « سمعا وطاعة » . ومضى يسوق الجمال وهو يقول : « ساحل اليك الجواب في منزل سكيئة ان شاء الله »

## مجلس سكيّنة بنت الحسين

أما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكيّنة بنت الحسين ، فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يخدم إليها من الوفود، لأن منزلها كان مقصد الشعراء والأدباء وأهل الوجاهة من قريش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جمجمة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للأضياف، ورأى بينها جل ليلي الاخيلية

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستاذن ، لأن الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان، ومشى في باحة كبيرة رأى في بعض جوانبها غرفا عديدة في صف واحد عرف انها دار الاضياف ، ثم رأى في صدر البستان بيتا متقن البناء على باب الخدم ، فعرف انه مسكن سكيّنة ، فتحول الى دار الاضياف . لعله يرى ليلي هناك فيقيم معها ريثما تأتي سكيّنة فتكون له وسيلة الى مقابلتها ، فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الدبائح ونحوها ، وقد سره اشتغالهم عنه لكي يتمكن من البحث عن ليلي ، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد أحدا يعرفه ، فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكيّنة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الآخر من الداخل . وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوافة مثل قوافة الدجاج ، فمشى الى مصدر الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن ويباها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فاطل حسن من فوق اكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما ، قليل اللحم ، أزرق اللون ، أحول البصر ، أقرع الرأس ، أنط اللحية ، جلس القرفصاء على اكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوىء كما تقوىء الدجاجة ، فاستغرب حسن ذلك ونظر الى أحد الوقوف مستغفها فقال له الرجل : « ألا تعرف من هذا ؟ »

قال : « لا .. ومن هو ؟ »

قال : « أشعب الطماع الذي اتخذته سكيّنة بنت الحسين مضحكا لها »

قال حسن : « أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أضحك من أخباره . ما الذى أقعده هذا المقعد وهو يقوىء كأنه يحضن بيضا ؟ »

قال الرجل : « بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينه مولاته ، فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفسد وقد مضى عليه أيام وهو على هذه الحال ! »

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد أن يشغل نفسه هنيهة أخرى فقال : « يا أشعب ما الذى أجلسك هذا المجلس ؟ »

قال : « أجلستنى إياه مولاتى سكينه ، فهل فيكم من يخرجنى من هذا المجلس ؟ »

فقال حسن : « ومن يتوسط لك فى هذا الامر ؟ »

قال : « كائى بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتى اليوم ، فإذا كانت هنا ، فلا أرى أقدر منها على اخراجى من هذا المكان »

قال حسن : « هان الامر ، فلك على أن أوسط ليلى فى العفو عنك »



ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : « ما وراءك ؟ »

فدنا عبد الله منه وقال : « دخلت البيت وسألت عن عرفة فقبل لى أنه خرج فى الصباح . ولم يعد بعد ولا يعرف أحد مقره » فابتدره حسن قائلا : « وسمية ؟ »

فقال : « وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكينه من برهة قصيرة فسررت بذلك وأتيت لأخبرك ، فهل رأيته هنا ؟ »

قال : « لم أرها ولعلها فى البيت مع النساء ، فكيف اصل اليها ؟ . بورك فيك يا عبد الله ، أمك أنت بالبواب مع الخدم والجمل معك حتى أخرج أو أحتاج اليك فى شيء »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء باب القاعة التى تستقبل سكينه فيها ضيوفها ، فرأى عليه

رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال له حسن : « هل أتى مجلس بنت الحسين أحد ؟ »

قال الرجل : « ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال : « وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟ »

قال : « نعم »

قال : « قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رجبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها : « اتى مسافر الليلة وقد جئت لوداعك »

قالت : « رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك »

قال : « ولكنى اعرض عليك أمرا أرجو مساعدتك فيه الآن وهو لا يتعبك »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « اتعرفين سمية بنت عرفجة ؟ »

قالت : « نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكيئة تخاطبها وسكيئة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا . وأنت ما شأنك معها ؟ »

قال : « شأنى معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هى لاتزال هناك ؟ »  
قالت : « لقد سرنى انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . وأظنها باقية لانى لم أرها خرجت . وعلى كل حال تعال معى فندخل القاعة فتمكث أنت مع الجلوس من الرجال وأدخل أنا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكيئة وصاحباتها فأبحث عن سمية »

قال : « أرجو أن تجمعينى بها ساعة لا يرانا فيها أحد سواك ، لانى خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالأمس ، وها انذا خارج الآن ولم أشاهدها أو أخاطبها »

قالت : « لك على ذلك »

قال : « خير البر عاجله ، فأتى مسافر عند الغروب »

قالت : « ألا تؤجل سفرك الى غد ؟ »

قال : « كنت أود ذلك ولكننى على موعد مع صديق لى نسير معا ، وسيوافينى عند الغروب الى باب المدينة » . ثم غير مجرى الحديث فقال : « وأوصيك بأشعب الطماع فإنه يحضن بيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطى له لدى مولاته سكيئة ، فلا تنسيه »

فضحكت وقالت : « قبحه الله ما أكثر مزاحه ، ولكنه وافق هوى  
في نفس سكينه ، فهي كذلك تحب المزاح ، وقد تعودت معاقبته بمثل  
ذلك العقاب ، وحضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه  
فملأت الدار ، وهي تسميها ( بنات أشعب ) . انى ذاهبه وسأكلهما  
في شأنه . فتعال معى واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومات  
اليك فتخرج »



دخلت ليلي ودخل حسن في اثرها . ثم أطل على القاعة فاذا هي  
واسعة وقد فرشّت بالطنافس الثمينه ، وحولها الوسائد المزركشة  
وفى صدرها ستارة عليها صور أشجار وطيور ملونة خلفها سكينه  
ونسأوها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها  
ورأى في القاعة جماعة قد تصدرهم خمسة عليهم لباس البدو ،  
فسألها : « من هؤلاء المتصترون ؟ »

قالت : « هم الشعراء . ألا تعرف أحدا منهم ؟ »  
قال : « أظننى أعرف الجالس على الوسادة المثناة ، فهو الغرزدق ،  
وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هو الغرزدق ؟ »  
قالت : « نعم انه هو بعينه . ألا تعجب من اجتماعه هو وجريز في  
مجلس واحد مع ما أشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »  
قال : « وأين جريز ؟ »

قالت : « هو ذاك الذى كف شعره وادهن ، ومتى تكلم سمعت  
لكلامه غنة يخرج بها الكلام من أنفه كان فيه نونا »  
قال : « ومن هو الآخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟ » . قالت :  
« هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال : « أماذ الله عزة من منظره فانه قبيح . ومن ذاك الشاب  
الجميل العريض المنكبين الحسن البزة . وكأنه جالس القرقصاء ؟ »  
قالت : « هو جميل بثينة أحد عشاق بنى علرة . ألا تراه حزينا  
لما أشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟ »  
قال : « ومن ذلك الأسود . ؟ انى لاستغرب منظره ، والشعراء  
يندرون فى السود ؟ »

فضحكت وقالت : « هو نصيب الشاعر الفحل . وأما سواده فلأن  
أمه أمة ، وهو من قضاة » . ثم أشارت عليه بأن يجلس على إحدى

الوسائد وأن ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية  
 فجلس وهو يخاف فوات الوقت ولم يكده يستقر به المقام حتى  
 سمع لفظاً من وراء الستار فاستبشر وظن أن ليلي تخاطب سكينه أو  
 سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : « أيكم الفرزدق ؟ »  
 وكان حسن يتوقع أن تناديه فلما سمعها تنادي الفرزدق ألتفت  
 إليه فرآه يقول : « ها أنذا »  
 قالت : « أنت القائل :

« هما دلياني من ثمانين قامة كما انحط باز أقمم الريش كاسره  
 فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا : أحى فيرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟  
 فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعر وأبنا وأفلت في أعجاز ليل أبادره »  
 قال : « نعم »

قالت : « فما دعاك إلى افشاء السر ؟ خذ هذه الألف دينار  
 والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها  
 وخرجت فقالت : « أيكم جرير ؟ » . فلما عرفها جرير نفسه قالت :  
 « أنت القائل :

« طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجمي بسلام  
 تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام  
 لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير ذمام  
 أنى أوأصل من أردت وصاله بجبال لا صلف ولا لوام »  
 قال : « نعم »

قالت : « أفلا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ . أنت عفيف  
 وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف .  
 ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : « أيكم كثير ؟ » فلما عرفته  
 قالت : « أنت القائل :

« وأصجبنى يا عز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع  
 دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المني حين يطمع  
 وأنت لا تدري صبا مطلته أشهد أن لا قاك أو يتضرع  
 وأنت أن وأصلت علمت بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع »  
 قال : « نعم »

قالت : « قد ملحت وشكلت ، خذ هذه الألف وأذهب لاهلك » .  
 ودخلت وخرجت وقالت : « أيكم نصيب ؟ » . قال نصيب : « أنا هو »  
 قالت : « أنت القائل :

« ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار »  
قال : « نعم »

قالت : « ربيتنا صفارا ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الألف والحق  
بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل :  
« مولائى تقرئك السلام وتقول لك : ( ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ  
سمعت قولك :

« ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى أنى اذن لسعيد  
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قاتل عندهن شهيد »  
فجملت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار والحق  
بأهلك » . فأخذها وانصرف

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس ، لان  
اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلسهن لمشل تلك المظارحة كان  
شائعا فى تلك الأيام ونبغ من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلى  
الاخيلية وغيرها . ولكنه استغرب اهتمام سكبنة على رفعة مقامها  
بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . وكان يسمع ويرى وهو قلق  
البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدري كيف يدعوها أو يستعجلها  
فراى أن يسمعها صوته ، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والأشجار  
على الستار الحاجز بين مجلسى الرجال والنساء ، كما لاحظ وجود  
أمثالها على الوسائد ، فراى أن يتخذ من ذلك موضوعا لاسماع ليلى  
صوته . وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول  
بعد أن انصرفوا ، حتى استوقفها وقال : « تمهلى يا بنية »

فوقفت والتفتت اليه فقال لها : « لقد باحث هؤلاء الشعراء  
وافحمتهم فانصرفوا فهل أسالك سؤالا ؟ »  
قالت : « قل ما تشاء »

قال : « أرى على ستاركم صورا وقد قال رسول الله ( صلعم ) :  
( أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون ) . ؟ »  
فأشارت الجارية اليه أن يتمهل ودخلت الى سيدتها ، ثم عادت اليه  
وقالت له : « وما يضرنا وما نحن من المصورين ؟ »

قال : « ولكنكم اتخذتم تلك الصور استارا . ولو كانت تلك صور  
أشجار فقط لهان أمرها ، ولكنها صور لذوات أرواح ، وفى الحديث  
( أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة ) . . »

وهنا سمع صوتا جهوريا من وراء الستار يقول : « لا تنس ثمتة  
الحديث ( الارقما فى ثوب ) . . » . فأدرك أن ليلى هى المتكلمة ، وسكت

بينما عادت الجارية الى مجلس النساء وليث هو على مثل الجمر لا يدرى  
ماذا يصنع ، والتفت نحو نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت الى  
الغروب فازداد قلقه وخشى أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب  
المدينة



وبينما هو يفكر في ذلك اذ سمع لفظا وراء الستار عقبه ضحك كثير  
وصوت يقول : « قد أطلقنا سراحه اذهبى يا بنانة وأخرجيه ، قبحه  
الله ما أخشيه » . فادرك أن سكينه هى المتكلمة ، ولكنه ظنها تريد  
إخراجه هو فاضطرب . ثم ما لبث أن رأى ليلى خارجة وهى تشير  
إليه أن يتبعها ، فسار فى أثرها حتى خرجا من القاعة فدنّت منه  
وقالت : « لا تخف انها لم تأمر بإخراجك ولكنها أمرت بإخراج أشعب  
الطماع لأنى أوصيتها به عملا بأشارتك »

فقال : « بورك فيك ، ولكن أين سمية ؟ »

قالت : « ليست هنا ، كانت فى المجلس وخرجت قبل أن أراك »  
فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال : « هل أنت على يقين  
مما تقولين ؟ »

قالت : « لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت أبيها لانها  
لا تستطيع الغياب طويلا عنه »

وفيما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا نحوهما ، فلما بلغ مكانهما  
هم بتقبيل يد حسن وقال : « جزاك الله عنى خيرا فقد أنقذتنى من  
عذاب طويل لأن البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة أيام ، فأسأل الله  
تعالى أن يقدرنى على مكافأتك . هل أستطيع خدمتك فى شىء ؟ »

قال حسن : « انى لم أفعل ما يستحق هذا الثناء » . ثم التفت الى  
ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى أشعب قليلا وقال  
حسن : « أستودعك الله يا ليلى ، وأرجو أن أراك فى خير » . فقالت :  
« أسأل الله لك السلامة والنجاح »

وعجل حسن بالخروج لعله يلقى سمية فى الطريق أو فى البيت أو فى  
مكان آخر . فلما خرج وجد خادمه عبد الله فى انتظاره ومعه الجمل ،  
فركب والشمس قد آذنت بالمغيب وبان الشفق الآخر ، وما زال  
يبحث جملة حتى بلغ بيت عرفجة فأحس بشىء استوقفه بغتة وما هو  
إلا عامل الحب أوقفه بجانب منزل الحبيب . فلم يتمالك أن نادى

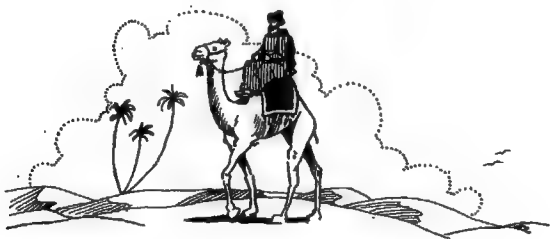


عبد الله ، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول : « هل اسأل عن  
سمية فلعلها عادت ؟ »

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره ، وابتسم ولم يجب ، فأصرع  
عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : « انها لم تعد يا سيدى »

فتنهده حسن ، وخيل اليه أن سمية باقية هناك في بيت سكينه  
ولكن ليلى لم ترها ، أو انها رأتها واخفت أمرها . وتكاثر عليه الهموم  
وترأمت الظنون - والمحبة سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه  
وزاد سوء ظنه بحبيبته وأكثره من قبل الغفلة ، فاذا رأى حبيبته  
يخاطب احدا مهما يكن من شأنه أو مقامه أو قرابته تبادر الى ذهنه  
أن يغالظه أو يسر اليه أمرا ، واذا أبطا عليه بالزيارة سبق الى فهمه أنه  
في موعد مع آخر أو لايجبه أو يحب سواه . وقد يخيل له ان أهل  
الحبيب كلهم ضده وأنهم يمنعون منه فاذا تخاطبوا همسا أو قصروا  
معه في شأن خيل له أنهم يريدون به سوءا أو هم ينصبون له أحولة  
فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون

فلا تلم حسنا اذا أساء الظن ليلى وحسبها تأمرت على اخفاء سمية  
عنه . وقضى برهة في مثل هذه الهواجس وهو على جله ، ثم انتبه فاذا  
بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن  
الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة في مرافقته وبالغ في اكرامه  
والتقرب منه ، فاستحث جله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة  
سمية ، وان علل نفسه بلقائنها عند رجوعه من مكة



## المفاجأة السارة

سار حسن بضغ دقائق صامتا حتى اشرف على باب المدينة ، ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل . وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب اذا بشيخ وقف له في الطريق هاتفا باسمه فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ثم أمسك زمام جله ونظر الى الشيخ فاذا هو امرأة ، فحدثه قلبه بانها سمية فوثب على الارض حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح الرحل .

اما حسن فانه نادى : « سمية ؟ »

قالت : « نعم ، ومن الذي معك ؟ »

قال : « هو خادم امين لا تخافى منه . ما الذى جاء بك الى هنا في هذا الليل ؟ انت سمية حقيقة ؟ ! . ما الطف هذا اللقاء وما اسعد هذه الساعة ! . سمية حبيبتى قولى ما بدا لك »

فتنهدت واسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ، وسكنت

وقد سر حسن لسعيها الى ملاقاته ، ولكنه اوجس خيفة مما دعاها الى ذلك لما يعهده في ايها من الشدة والغلظة فقال لها : « انى لا ارى في هذه الدنيا احدا اسعد منى الآن ، وقد بدلت الوسع في سبيل الحصول على هذه القابلة فلم افز ، وها قد اتتني الساعة عفوا فالحمد لله ، ولكننى اخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب يسوء » . فتحيرت سمية ولم تدر بم تجيبه فلبثت صامتا ، فازداد هو قلقا وقال لها : « ما بالك ؟ قولى . لعلك علمت بذهابى الى مكة فخفت خطرا يهددنى هناك ؟ »

فلما سمعت ذكر الخطر اجابته والبكاء يخفق صوتها : « نعم اخاف عليك الخطر ، ولكن ليس في مكة فقط بل . . » . وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فانقطع قلب حسن ومد يده فامسك اناملها ، وهى اول مرة قبض فيها على تلك الانامل ، فاحس برعشة تملكته وقال لها : « ماذا ؟ . قولى يا سمية . يا مالكة قلبى . هل تخافين على احدا في هذه المدينة ايضا ؟ »

انك ما دمت لى لا تحبين سوى فلست ابالى بعد ذلك اذا كان اهل الارض كلهم اعدائى ! »

قالت : « واذا كنت انا عدوتك ؟ »

فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها : « اذا كنت انت عدوتى فلا غرض لى فى الحياة . بالله قولى ما فى نفسك . ممن تخافين على ؟ فاريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار . قولى »  
فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهى تقول : « لا اريد ان ارى دمه مسفوكا »

فتعجب وقال : « وماذا اذن ؟ افسجى يا سمية . قولى . ممن تخافين على ؟ فقد نفذ صبرى وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولى صديق ينتظرنى فى الخارج . قولى »

قالت : « انى اعد قولى عقوقا منى . ولكننى اسيرة حبك لا ارى لى حياة الا بك »

فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده فقال : « قد فهمت ماتريدين . انك تخافين على من ابيك . اليس كذلك ؟ »

قالت : « نعم » . واستغرقت فى البكاء حتى كاد يعفى عليها وكان هو ما زال ممسكا بيسراها ، فأمسك بيدها الأخرى وقال لها : « ولا هذا يهمنى ما دمت تحبيننى . هل تحبيننى يا سمية ؟ »

فصعدت الزفرات ولم تجب ، فقال : « فاذا كنا متحابين فعمى ذا يحول بيننا ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الأمر ثم قال : « وما الذى دعا اباك الى بغضى والحاق الاذى بى وأنا لم ارتكب منكرا ولا أسأت اليه فى شيء ؟ »

قالت : « ذنبك انك احسنت اليه . أو لعل ذلك من سوء حظى . ولكن ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا ياذن بطول الشرح . فأخبرك أن ابنى لا يريدك ، وأخاف أن يسسعى فى أذاك ، وقد علمت ذلك على اثر خروجك من منزلنا ، فأردت اطلائك على جليلة الجبر لتكون على بصيرة »

قال : « اما الحاق الاذى بى فانى لا اخافه ، ولكننى اخاف ان يلحق الاذى بك انت »

قالت : « لقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما اراك ثم افعل ما تأمرنى بى »

فاطرق حسن ثم قال : « انى مفلول اليدين بما اخذته هلى نفسى من امر السفر الى مكة عاجلا فى مهمة لرجل احبه وله على فضل كبير .

وكنيت أحب أن ادعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب الى مكان به الحزب  
قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر »

فقطعت كلامه قائلة : « وكيف تعرض نفسك للخطر ؟ ان مكة اليوم  
في أضييق حصار وأهلها في ضنك شديد . بالله الا عدلت عن الذهاب  
ثم تفعل ما تريد ؟ »

قال : « أما الذهاب فلا بد منه فامكني أنت هنا وأظهرى الطاعة  
حتى أعود ونرى ما يكون . ولست أخشى بأسا ولا خطرا ما دمت  
لا تحبين سوى » . ثم سمع جعجة الجمل فانتبه للوقت وقال لها :  
« كنت أود الا نفترق منذ الآن ولكن للضرورة احكاما . وسأرسل  
عبد الله معك الى منزلك لان الليل قد اظلم ولا آمن عليك المسير  
وحدك ، فهل تسيرين الى بيت أبيك ؟ »

قالت : « لا ولكني أعود الى بيت سكينه لأن أبى يعلم انى سرت  
اليها فاذا استبطاني سأل عنى هناك فاعتذر عن تأخرى ، وذلك من  
غير ان يرانى عائدة الى البيت وحدى في هذا الليل . ولكن كيف افارقك ؟ »  
قال : « تشددى يا سميه ان سفرى هذا لا بد منه ، ولكنه سيكون  
آخر الاسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معا »

فلما قال ذلك بكث سميه حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه ،  
وكاد يشاركها البكاء لولا أنه تجدد وقال لها : « لا تبكى يا سميه بل  
اتكلى على الله وأعلمى انى عائد اليك على عجل » . قال ذلك ونادى  
عبد الله وقال له : « أوصل سميه الى بيت سكينه ، ثم الحق بى في  
الطريق المؤدى الى العقيق ، فانى سابقك الى هناك ، فقد ابطأت على  
سليمان وأخاف أن يكون قد سبقنى أو عاد الى منزله »



سارت سميه وهى تقول لحسن : « سر فى حراسة الله ، وأسأله أن  
ينصرك على أعدائك » . وظل صوتها يرن فى أذنيه حتى توارت عنه ،  
فركب جله وسأقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمينه ويسرة  
فلم ير سليمان

فخرج وهو يمشى الهوينى ويصيح بسمعه لعله يسمع صوتا ،  
وجمل يحرق بعينه لعله يرى أجدا فصار والجمل دليله بين تلك  
المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجة جمل عن بعد  
فاستوقف جله وأصاح بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق

الجمال سوفا بطيئا فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره  
والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمل على العشب  
أو الطين

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى ، فسمع  
صوتا عميقا ، وخشى أن يجمع جله فيشوش الصوت فترجل عنه  
وعقله وشده الى نخلة ، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة  
أن يخوض في الأوجال حتى تحول عن الطريق الأصلى الى ساحة  
لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جلامعقولا وشبيحا متوسدا الى جانبه  
وفوق رأس الشبيح شبيح آخر ييكى وينتحب . فاختابا حسن في  
منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد ، فسمع صوتا يقول :  
« يا لتعاستى وشقائى ! . لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى ،  
انى لاستحق هذا القصاص ، ولكن ما ذنبك أنت ؟ تبألى ما اتعس  
حظى ! . ولدى ! حبيبى ! كلمنى يا سليمان . سليمان . . سليمان »  
فلما سمع حسن اسم سليمان علم أنه صديقه ، فاقشعر بدنه  
وخشى أن يكون قد أصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على  
قبضة سيفه حتى أقبل على الشبيحين ولم ينتبه له أحد !

ثم سمع الشبيح الراقد يقول بصوت ضعيف : « لا تحزن يا أبى فقد  
ذهبت فداء صديق لى هو أحق بالحياة منى »

فقال الآخر : « اظنك تعنى هذا الشقى لأنه وفى بعهده . انى عاهدت  
الله على نصر الحسين والقنـبـال فى سبيله وجعلت نفسى فى عداد  
التواوين ، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيرا ما رايتك غير راض  
بذلك ، فلم أكن أصغى اليك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبى ! »  
فتحقق حسن أن الراقد سليمان ، وأنه فى ضيق ، فلم يتمالك عن  
أن صاح قائلا : « سليمان ؟ »

فاجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال :  
« انسى أنت أم جنى ؟ » . وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره  
والشيب قد جلل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية  
صغير العمامة . ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد  
أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم  
فتغرس فى عينيه فاذا هو يفتحهما فتحا ضعيفا ويتالم فأمسكه حسن  
بيده وقال له : « سليمان ؟ . أخى سليمان ! ماذا أصابك ؟ »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على اذننى الجريح ، ففتح عينيه  
وصاح : « حسن ؟ أشكر الله على أن جعلنى فداءك »

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الآخر وقال : « حسن ؟

انت حسن ؟ . يا لله ما هذه المصيبة التي نزلت بي بسببك ولكن  
الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبي أنا الشقي التعس ! »

فادرك حسن ان الكهل والد سليمان ، وانه كان يترصده فأصاب  
ابنه خطأ . فصرف عنايته الى انقاذ حياة سليمان ، وحاول أن ينهضه  
قائلا لآبيه : « الى بالماء » . فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب ، فرش  
به وجه سليمان وغسل موضع الجرح في أعلى الصدر ، وكان قد أصيب  
بنبلة أخرجها أبوه

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معايشة خالد بن يزيد  
الأموي في دمشق ، لأن خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى  
فاق بها سائر قريش ، وكان بصيرا بصنعة الكيمياء والطب متقنا لهما ،  
والف في ذلك بعض الكتب والرسائل وقد أخذ العلم عن راهب اسمه  
« يانس » . ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من أهل العلم فكان  
حسن يجالسهم ويسمع أقوالهم

فلما غسل الجرح ضغطه ، وأمر أبا سليمان بإيقاد النار فأوقدها  
بالزناد ، ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلا منه وذره  
فوق الجرح وربطه

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل : « ليس معي قربة »

فقال حسن : « اسند ظهره لاتيك ببعض الماء من قربتي » . قال  
ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التي عقل جلده عندها فلم يجد الجمل  
هناك فطار صوابه لأنه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد في مخبأ بالرحل  
الذي فوق الجمل حرصا عليه ، وهذا الى ان الجمل كان عزيزا عنده  
وعليه مدته وثيابه والماء وكل شيء . على انه لم يشأ أن يضيع الوقت  
وسارع الى اقتفاء آثار الجمل ، وكان قد لاحظ أن حل عقال الجمل  
لا يدل على حدوث عنف ، فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متينا  
فأنحل من تلقاء نفسه ، وانطلق الجمل هائما على وجهه او يطلب المرعى  
هنا وهناك

وسار حسن في طلب الجمل مضطربا خائفا لانه غريب في تلك البلاد ،  
ثم وقف ونظر الى ماحوله من الفياض والبساتين والظلام حالك ، فلاح  
له ظل يتراءى بين النخيل امامه ، فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع  
هدير جل هناك فأخذ طريقه اليه ، ولاحظ ان ذلك الشبح يبتعد ،  
فسارع السير في أثره وهو يتعثر بالأعشاب والاحجار ونظره شاخص  
اليه ، وما زال يمشى والشبح يمشى امامه حتى خرجا من بين النخيل  
الى الفلاة ، فما كاد حسن يتفرس في الشبح حتى أدرك انه هو جلده  
فواصل السير في أثره ، وكان الجمل أجفل من المطاردة فأسرع في سيره ،  
وظل سائرا مدفوعا برغبته في القبض عليه حرصا على ما يحمله

## جميل وبثينة

وفيما هو يركض ويلهث اذا به يرى شيخا عليه لباس الرعاة يسير عارى الرأس وقد غرس عصاه في فقا طوقه ، وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام . فناداه حسن : « يا أخا العرب ، ألم تر بعيرا راكضا هنا ؟ »

وما أتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وأمسك بذراعه وضغطها بشدة في حين أشار اليه أن يسكت وينتظر ، فالتفت حسن الى ماحوله فرأى شجرة كبيرة على أكمة ورأى هناك ظلا يتحرك ، فهمس في اذن الشيخ قائلا : « ما شأنك ؟ . أخبرني »

قال : « لقد اتفق لى اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة فاذا أصفيت لى قصصت الخبر عليك ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند تلك الشجرة »

قال حسن : « ولكن هل رأيت جلا راكضا من هنا ؟ »

قال : « نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادى ، ولا تخف عليه فانى كفيل برده اليك ، لأنى أعرف رجال الحى وهم يعرفوننى ، والابل سارحة عندهم ولاخوف عليها »

قال حسن : « وأى واد هذا ؟ »

قال : « هو وادى القري »

قال حسن : « أليس هو موطن بنى عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم ؟ »

قال : « هو بعينه . والحادث الذى وقع لى اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء . فأعزنى سمعك لأقص عليك الخبر . - »

فمال حسن الى سماع الحديث ، وأهل الغرام يميلون الى أحاديثه ، فقال الرجل : « قضيت فى هذه الاودية معظم فصل الربيع أرمى أبلى ، فجاءنى فى أصيل اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان ، فسلم على ثم قال : ( ممن أنت يا عبد الله ؟ ) . فقلت : ( أحد بنى حنظلة ) . قال : ( فانتسب ) . فانتسبت حتى بلغت فخذى الذى أنا منه . ثم سألنى عن بنى عذرة أين نزلوا فقلت له : ( هل ترى ذلك

السيفح انهم نزلوا من ورائه) . قال : ( يا اخا بنى حنظلة ، هل لك في  
خير تصطنعه لى ، فوالله لو اعطيتنى ما ترعاه من هذه الابل ما كنت  
بأشكر عليها منى لك عليه )

« فقلت : ( نعم ومن أنت ؟ ) . قال : ( لاسألنى من انا ، ولن أخبرك  
بأكثر من انى رجل بينى وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بنى العم ، فان  
رايت أن تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتشدهم بكرة ادماء تجر  
خفيها عقلاء من السنة . فان ذكروا لك عنها شيئا فذاك ، والا  
فاستأذنهم في دخول البيوت وقل : ان المرأة والصبي قد يريان مالا  
يرى الرجال . فاذا اذنوا لك فادخل بين البيوت واسأل أهلها حتى  
لاتدع أحدا تصيبه عينك ولا بيتا من بيوتهم الا وقفت به وسالت) . »

فدهش حسن واشتدت رغبته في سماع بقية القصة ، وعاد الشيخ  
الى الكلام فقال : « فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ،  
فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لى شيئا ،  
فاستأذنهم في دخول البيوت وقلت : ( ان الصبي والمرأة قد يريان مالا  
يرى الرجال ) . فاذنوا . فأتيت أقصاها بيتا ثم مضيت اطوف بها بيتا  
بيتا أسألهم فلا يذكرون شيئا . حتى اذا انتصف النهار وآذاني حر  
الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لأنصرف ، حانت منى  
التفاته فاذا بثلاثة آيات فقلت في نفسي : ( ما عند هؤلاء الا ما عند  
غيرهم ) . ولكنى عدت فقلت لنفسى : ( أبقى بى رجل يؤكد ان حاجته  
تعديل كل مالى ثم آتية فأقول عجزت عن ثلاثة آيات ؟ ) . فانصرفت  
عامدا الى أعظمها ، فاذا أهله قد أرخوا مؤخره ومقدمه ، فسلمت  
فردوا السلام . وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم : ( يا عبد الله قد  
أصبت ضالتك ، وما اظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب ) .  
قلت : ( أجل ) . قالت : ( أدخل ) . فدخلت فأتتني بصفحة فيها تمر  
من هجر ، وقدر فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضة والقدر لم أر  
أنا قط أحسن منه . فقالت : ( دونك ) . فأكلت التمر وشربت من  
اللبن حتى رويت . فقلت : ( يا أمة الله ، والله ما أتيت أكرم منك ولا  
أحق بالفضل ، فهل ذكرت عن ضالتي شيئا ) . فقالت : ( هل ترى هذه  
الشجرة فوق الشرف ؟ ) . قلت : ( نعم ) . قالت : ( ان الشمس  
غربت أمس وهي تطوف حولها ، ثم حال الليل بينى وبينها ) . فظننتنى  
فهمت مرادها فقلت : ( جزاك الله خيرا ، والله لقد تغذيت ورويت ) .  
ثم مضيت فأتيت تلك الشجرة وطفت بها فما رايت أثرا . فأتيت  
صاحبى فاذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الابل ورفع عقيرته بغنى  
فقلت : ( السلام عليكم ) . قال : ( وعليكم السلام ، ما وراءك ؟ ) .  
قلت : ( ما ورائى شيء ) . قال : ( لا عليك ، فأخبرنى بما فعلت ) .



فقصصت عليه القصة حتى انتهت الى ذكر البراة وأخبرته بما صنعت فقال : ( قد أصبت طلبتك ) . فعجبت لأنى لم أجد شيئا . ثم سألنى عن صفة الاناءين والصفحة والقدح ، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال : ( قد أصبت طلبتك والله ) . ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهى تطوف حولها ، بدا البشر فى وجهه وقال : ( حسبك ) . ففهمت أنها ضربت له موعدا للقائه عند هذه الشجرة بعد الغروب . ومكث حتى أوت ابلى الى مباركها ، فدعوته الى العشاء فلم يذن منه وجلس منى بمزجر الكلب . حتى اذا ظن انى نمت ، قام الى عيبة له فأخرج منها بردين ، ارتدى أحدهما وانتزى بالآخر ثم انطلق نحو الشجرة . وهو الذى تراه جالسا هناك بقرب جذع الشجرة ، وسرى ما يكون من اجتماع الحبيبين »



امسك الشيخ حسنا بيده ، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الارض بين شجيرات هناك ، ثم أشار بيده صامتا نحو شبح صاعد من الوادى وعليه لباس النساء ، ومعه شبح آخر وقال : « هذه هى الفتاة ومعها خادماتها ، اضطجع مكانك لترى ما يكون »

فانبطحا ، وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا فى مكان بحيث يريان ويسمعان ما يدور بين الفتى والفتاة

ولو ان الليلة كانت مقمرة ، لتبين لهما ما ارتسم على وجه الفتى حين وصلت الفتاة ، فوقف وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه فى خلاء وظلمة . وكان قلب حسن فى اثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة أن يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيظه ، فندم على اصغائه للشيخ الراعى لما فى اختلاس أسرار الناس من أمر منكر . على أنه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هذين العاشقين . واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام فى الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا فى احترام تلك الاسرار والاغضاب عن استطلاعها عملا بالآداب العامة

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته ولا سيما عند أهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصططكت ركبتاه واقتشع ريدنه . ولم يكن سبب ذلك التأثير الا توقعه أمرا يخاف أن يراه ولا يريد أن يفوته . ولكنه ما كاد يرى العاشق واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته أنه جيل الذى رآه أصيل ذلك اليوم فى مجلس سكية . فتحقق ان الفتاة هى بثينة ، لانه كثيرا ما كان يسمع

احاديث غرامهما وكيف منعه اهلها منها ولكنه مازال يحبها حبا مفرطا ،  
كما انها تحبه هي أيضا . وكان حسن يسمع بحب بنى عذرة وعفافهم  
ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الغلاء على غفلة من  
الرقباء يكون مقصورا على لقاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر  
لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها . جلسا متقابلين ينظر أحدهما إلى  
الأخر ولا يفوه بكلمة إلا ما كان عتابا أو تشاكيا ، ولا يقولان فحشا ولا  
هجرا . فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة  
تنادى خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منهما ، فجاءت  
تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحدثان فلما فرغا من الطعام  
قالت بثينة : « بلغنى انك قلت فى أشعارا فهل انت على حبك ؟ »

قال : « لا اعرف فى لغة البشر لفظا يعبر عما فى قلبى ، فانه اعظم من  
الحب ، واشد من الغرام ، وأرقى من العبادة . لا أدري ما هو يا بثينة  
فاذا اكتفيت بتسميته حبا فانى لا اراه يؤدى ما فى قلبى »  
قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لا أدري يا حبيبتي . لا أدري كيف هو ولا ما هو ! » . ثم  
صعد الزفرات وقال : « انما أعلم انك نصب عينى أينما سرت وحيثما  
جلست وكيفما نظرت ، ان بثينة أمام عيني ، أراها جسما واضحا ومن  
عداها من الناس أراهم أشباحا أظلالا . ولم أسمع اسمها الا اضطربت  
جوارحى وخفق قلبى ، ولا أرى راحة الا بالبكاء ، حتى قلت :

( خيلى فيما عشتما هل رايتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟ ) . »

فقالت بثينة : « اذا كنت انت كذلك فكيف أنا ، ولكننا معشر النساء  
مقضى علينا بالتعب والشقاء ، فلا تقدر احدانا على بث شكواها الى احد  
لئلا يتعلم عرضها . واما انتم معشر الرجال فلکم الحرية كلها . وانتم  
تزعم انك تحبني حبا لا تدري مقداره . فهل يهجر بحب حبيبه وقد  
أحبه الى هذا الحد ؟ فوالله ما أعلم ما تسمعه عنى أو تقوله فى أثناء الغياب  
الطويل . ولا أدري موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن ؟ » . قالت ذلك  
بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

اذ تذكرين بصالح ان تذكرى  
أو تلتقى فيه ، على كاشهر  
ان كان يوم لقائكم لم يقدر  
حدث لعمرك رائع ان تهجرى  
يتبع صداي صدك بين الاقرب

» انى لاحفظ غيبكم ويسرنى  
ويكون يوم لا ارى لك مرسلا  
يا ليتنى ألقى المنيعة بفتة  
لا تحسبى انى هجرتك طائما  
بهواك ما عشت الفؤاد وان امت

فما تماكنت بئينة عند سماعها قوله ان غصت بريقها وقاله .  
« وهل أنت الذي قلت :

« الا ليت شعري هل أبيت ليلة  
وهل ألقين فردا بثينة مرة  
تجود لنا من ودها ونجود »  
قال : « نعم »

قالت : « وما الذي ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال : « لا أطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب

« لا ، والذي تسجد الجباه له مالي بما تحت ثوبها خير  
ولا بغيرها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر »  
فاطرت بثينة خجلا ثم قالت : « ذلك عهدنا بجميل ، ولولا ذلك  
ما رأيتني أسعى اليك وحدي »

فلا تسلم عن استغراب حسن والراعي ما راياه حتى هانت على حسن  
نفسه لانه لم يكن يظن انه يستطيع ما استطاعه جميل اذا التقى بسمية  
قضى جميل وبثينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت فودعته أحسن  
وداع ، فودعها بمثله ، وانصرف كل منهما في سبيله وكل منهما يمشي  
خطوة ثم يلتفت الى صاحبه

فلما توأريا نهض حسن من بين الأعشاب مذهولا وقال للرجل :  
« لقد رأيت منظرا طالما تآقت نفسي لمشاهدته ، انه منظر يخجل منه  
كل ضعيف النفس دنيء الطبع . ان العفة يا أخا العرب خير ما في  
الفضائل »

فقال الشيخ وهو ينقرب مصاه على مباءته لنفض التراب عنها : « كيف  
لا وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول قال رسول الله - صلعم -  
(من عشق فعف فمات فهو شهيد) . وقال أيضا : (عفوا تغف نساءكم) . »

فقال حسن : « صدق رسول الله ، وان بنى عذرة كلهم لشهداء فقد  
بلغنى مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكننى لم أصدق حتى رأيت ذلك  
رأى العين »

ثم انتبه حسن لما هو فيه من أمر جرح سليمان وضياح الجمل فقال  
للراعي : « أين الجمل يا أخا العرب فقد وعدتني باحضاره »

قال : « امكث هنا حتى آتيك به » . قال ذلك وانحدر في الوادي  
حتى توأرى عن النظر ، ولكن صوت الاحجار المتدحرجة تحت قدميه  
ما زال مسموعا ، ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبت  
ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان

ولما خلا حسن الى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه في عالم الخيال فانقل ذهنه مما شاهده في ذلك المساء الى سمية وحاله معها . ثم الى خادمه عبد الله وتأخره ، ثم الى سليمان وأبيه ، ثم عاد الى الجمل الهارب يكتب خالد فرأى انه أهمل البحث عنه بترصه هناك لمشاهدة لقاء ذبلك الحبيبين . ولكنه اعتذر بأنه انما فعل ذلك مرغما ، فلو انه لم يطع الشيخ الراعى وظل في مسيره لما وجد الى جله سبيلا لانه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وفيما هو كذلك وظلام المساء لا يريه على الاكام والادوية المحيطة به الا ظلالا ضعيفة ، سمع خريشة بين الاعشاب فوق بفتة ثم فطن الى انها خريشة ضب سارح فلم يلتفت اليه . ولكنه ظل واقفا وقد تزايد قلعه لابطاء الراعى وهم باللاحاق به ولكنه خاف أن يختلفا في الطريق

ولما طال انتظاره مل الوقوف فمشى على غير هدى ، واتخذ علامة علقها على الشجرة لتهديه الى المكان من بعيد . وجعل مسيره في جهة الوادى الذى سار اليه الراعى يطلب الجمل وهو يتوقع أن يلتقى بالشيخ وهو عائذ أو يسمع جعجعة الجمل عن بعد أو يعود الى مكانه . ولذلك فانه كان كلما مشى يضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة أن تتوارى عن بصره . وراء بعض التلال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع في انبائها صوتا ولا رأى شيئا ، ثم نسي أمر الشجرة فانحدر في الوادى وهو يتلصص الارض ولا يري الطريق فكانت رجله تزلق طورا ، وترتطم أصابعه طورا من فوق النعال بأصول الاعشاب الباقية بعد المرمى ، وهو بين أن يحمق نحو الوادى بعينه أو يصيح بأذنيه أو يتفردس في الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزوله من مكانه

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادى فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاطم كلما اقترب من النور ، فلم انه على مقربة من بعض القرى الكثيرة في وادى القرى منتشرة في بطنه وعلى جانبه . ولكنه استغرب النباح في الليل لعلهم أن ذلك لا يكون الا اذا طرق الحى فاز أو لص . فوقف ليستريح ويفكر في أمره فالتفت الى ما يحيط به فاذا هو في واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شيئا يعدو صاعدا من الوادى كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : « ما وراءك يا اخا العرب ؟ » أين الجمل ؟ »

قال : « ما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « جاء بى قلقى على الجمل ورغبتي فى التبعجيل بالاياب »

قال : « وما العائده من انحدارك في هذا الوادى والليل دامس وانت لاتعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحى ليلا اذ نبحتك الكلاب ، لانها لم تألفك من قبل كما ألفتنى لكثرة تردادى الى هذه القرى »

فقطع حسن كلامه قائلا : « مالنا ولهذا ؟ قل لى أين الجمل ؟ »  
قال : « لم أعر عليه فى المكان الذى كنت أظنه فيه ، والظاهر انه قصد ماء آخر وقد كنت ذاهبا للبحث عنه فى العقيق بجوار المدينة »  
فاستعاذ حسن بالله وقال : « يا الله ! ما هذه المصيبة ؟ »

فابتدره الراعى قائلا : « لاتخف ياسيدى فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلا فان أهل البادية يرسلون ابهام للمرعى وقد لا يرونها اياما ثم تعود بنفسها . او يعود بها غلام أو فتاة . وقد كان ذلك شأننا فى زمن الجاهلية فكيف ونحن الآن فى ظل الاسلام ، واما انتم معاشر أهل المدن فاذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها »

فحل حسن من جدال الراعى فقال له : « مالنا ولهذا الجدال ؟ . أين الجمل وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال : « يقلب على ظنى انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج أهل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات أو اياما فى خيام يحملونها معهم ، وربما ذبحوا الذبائح وأولوا الولائم »

فقطع حسن كلامه قائلا : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فالعقيق مجتمع أهل الرخاء من الثريين وهو يذكرنى ايام الشبَاب ، فقد كان العقيق موعدنا لتلقى نساء المدينة . لا تغضب ياسيدى اننا سائرون الآن جنوبا نحو المدينة والعقيق فى طريقنا اليها »



استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المكان الذى ترك سليمان واباه فيه ، فقال للشيوخ : « هلم بنا » . « قمشيا والراعى على شيخوخته أسرع عدوا منه لأنه تعود المشى فى الوعر . اما حسن فلما صعد من الوادى والتفت الى السماء وتبين الكواكب فعلم انه فى اواخر الليل بغت لضياح الوقت وهو لم يأت عملا بعد ، وتشاءم مما تأتى له فى ذلك المساء وهو انما أمسك عن رؤية حبيبته رغبة فى السير الى مكة على عجل ، فكيف يعود الى الوراء بعد قضاء الليل فى المشى والقلق ؟ »

قضى مدة سائرا فى أثر الراعى ، على أرض رملية ، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء . وفكره تائه حتى رأى نجم الصبح فعلم ان الفجر

دنا ثم رأى الراعى وقف وأشار اليه قائلا: « ألا ترى الماء أمامنا عن بعد؟ »  
قال: « انى أرى سطحاً لامعاً وكأنى أرى فيه سماء أخرى من انعكاس  
أنوار الكواكب ».

ولما رأى الماء شعر بانسراح الصدر واستبشر ببلوغ أمنيته وجعل  
يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى أناساً أو جملاً فلم ير شيئاً . ثم  
سمع الراعى يقول: « ها أنا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه أحداً  
سوى أناس كانوا هنا ورحلوا في أوائل الليل فاقعد على هذا الحجر  
واغسل رجلك في هذا الماء واسترح ريثما أميك بالخبر »  
قال: « دعنى أسر معك »

قال: « لا . أمكث هنا واغسل رجلك وساعدوك اليك على عجل فانى  
لا أتحقق الأمر حتى أطوف حول هذا الماء . ولا حاجة الى مسيرك معى  
فقد تعبت ، وإن كنت فى عنفوان الشباب لأن أهل المدن لا يقومون على  
المسير مثلاً » . قال ذلك والتحف العبادة وسار وحسن يتبعه بنظره  
حتى توارى ، وما لبث أن سمع الشيخ يناديه فنهض وأسرع حتى أقبل  
عليه فإذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الأغصان وقد قبض بيده  
على شيء وهو يقول: « متى خرجت من المدينة ؟ »  
قال حسن: « نحو الغروب »

قال: « هل أطعمت الجمل قبل خروجك ؟ »  
فتحير حسن بماذا يجيب لأنه وكل أمر الجميل الى خادمه فقال:  
« أظن الخادم أطعمه »

فبسط الشيخ يده فإذا فيها أبعاد فقال: « ان هذه الأبعاد جمل من  
جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع »  
فاستغرب حسن بته فى الأمر وقال: « وكيف عرفت ذلك ؟ »  
قال: « عرفته من هذه الأوساخ ، فان فيها النوى وهو علف جمال  
المدينة لأن النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها أنها وضعت من  
عهد قريب . ولم أر واضعها فيكون قد عاد »

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذى يشير اليه  
هو جملة ، اذ لا يبعد ان يكون جملاً أناس آخرين فقال له: « وما الذى  
ينبئك انه جملى وليس من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة ؟ »

فضحك الشيخ وقال: « لو كانت أبعاد الجمال كثيرة لرأيناها أصنافا  
والوانا . فهى اذن لجملة واحد ، وهذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . وأى  
جملاً من جمال أهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا أن  
يكون فاراً مثل جملك ؟ »

فأعجب حسن ببداة أهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنه ما زال مشككا في أن يكون ذلك الجمل جله فقال : « لا أرى ما يمنع بعض أهل المدينة من الخروج الليلة على جله يلتمس بعض الاحياء فمر بالعقيق ليشرّب او يسقى جله او يستريح »

قال : « قد يكون ذلك ، ولكن حال المكان ، لا يدل عليه ، لأنى لا أرى على الأرض آثار آدميين »

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن انه أفحمه : « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جله وانما وقف ريثما شرب ثم ساقه »

فقال : « لا ، لأن الجمل لا يستطيع الوقوف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لأنها تمس ظهر الجمل بانسائها وانحنائها وليس عليه أحد »

قال حسن : « ربما برك الجمل ؟ »

قال : « لو فعل لشاهدنا آثار ركبه ، فما الجمل الذى مر من هنا الا جلك ، واذا صبرت هنيهة أريتك الطريق الذى سار فيه فيهن عليك طلبه »

قال : « وكيف ذلك ؟ » . وكان الفجر قد لاح ، وتبينت الأرض جيدا فنظر حسن الى ماحوله وراجع ما قاله الشيخ فترجح لديه قوله ، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة أهل البادية في قيافة الاثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال : « أنظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جبل يعدو عدوا سريعا ، يدل على ذلك عمقها وعدم نظامها ، ويظهر ان الجمل عاد الى المدينة » .

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها . فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد الى التفكير في أمر الجمل فقال : « انى لاستغرب ما رأيته اليوم من جلى ولم يكن عهدى به مثل ذلك من قبل »

قال : « للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد وأركن الى الفرار كانه أصيب بجثة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب او جوع . ومهما يكن من الامر فاطلب جلك في المدينة . واما انا فانى استأذنك فى العودة الى ماشيتى مخافة أن يكون قد أصاب ابلى ما أصاب جلك وهى وحدها هناك ما عدا غلاما وامه تركتهما لحر استها »

فأثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصدا المدينة وقد انهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له ففعل على أن يسير توا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يينحث بعد ذلك عن الجمل ، ثم تذكر

حديث سليمان وأبيه وما فيه من الإشارة إلى الفتك به فأحب استطلاع سر أبي سليمان قبل دخوله المدينة لتلايكون فيه ما يمنعه من دخولها، فسار يلتمس المكان الذي تركهما فيه بالأمس فاستشرف أكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئا كالجمال البارك ثم ما لبث أن سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فإذا هو جله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره ولا خطام في رأسه فشك في أن يكون جله وظنه جلا آخر ، ففارس فيه جيدا فلم ير فرقا بينه وبين جله ، ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التي يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر في الميسم فإذا هو الميسم الذي يعرفه فتحقق أنه جمله وأنه لم يعد يقوى على السير فلطم بهمه ضياعه وود لو أن الراعى معه ليهبه الجمل فينحره لأهله . ثم عاد إلى التفكير في الرحل وما كان عليه من امتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد ، فزاد تشاؤمه من تلك السفارة وقال في نفسه : « لم يعد لى وطري في المدينة الآن » . ووقف برهة ثم مشى إلى الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحا وبجانبه أبوه فرأى المكان خاليا إلا من آثار الدم على صخر منبسط ، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه فإذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فاستغرب تمزقه ، ثم طرح بقاياها وفكر في أمر سليمان والكتاب فقال في نفسه : « لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر إلى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية أن يدفعه إلى عند الملتقى » . فارتاح حسن إلى هذه الفكرة وهذا اضطرابه وترجع لديه أن أبا سليمان حمل ابنه إلى منزله في المدينة لداواته ، فعول على الذهاب إليه وفيما هو سائر إلى المدينة رأى غبارا يتطاير في عرض الأفق مما يلي طريق مكة ، فوقف ينتظر ما يكون فإذا بثلاثة من الإبل عليها ثلاثة رجال قد تلمشوا وساقوا الإبل سوقا عنيفا ، ثم سمع قرعة اللجم فعلم أنها إبل البريد وكان لدواب البريد قمعة خاصة كان أرسانها من سلاسل الحديد ، أو لعلهم كانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو نحوها ، فمكت هنيئة ريثما يمر البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب أنهم من العراق فترجع عنده أنه بريد الحجاج بن يوسف إلى عامل المدينة



## حسن وسليمان وأبوه

سار حسن في اثر البريد قاصدا بيت سليمان من اقرب الطرق فلما وصل اليه سال عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستاذن واقبل على حجرة راي فيها سليمان راقدًا وأبوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له أبو سليمان مرحبا به ، وأراد سليمان النهوض فامسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمد الله على انه احسن كثيرا ، ويعزو الفضل في شفائه الى نجاته اياه . فقال حسن : « ما اظن المصيبة جاءتك الا بسببي »

فقال سليمان : « أشكر الله لانه نجاك من هذا الخطر »

فتقدم أبو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له : « اغفر زلتى يا بنى ، فان الله هددنى بالقصاص حتى خفت فقد ابنى ووحيدى ، وأشكره على السلامة ولانه اكسبنى ابنا آخر »

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ، ولكنه راي في وجهه دلائل السويداء واتقباض النفس فاذا ابتسم فكانما يتسم تكلفا ، واذا ترك ساعة او ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كانه يفكر في مصاب محقق به

ثم سلاه عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم وأبو سليمان يصغى اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال : « فلما رايت جلى بلا رحل على مقربة من المكان الذى كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورايتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لى عندكم »

قال أبو سليمان : « كلا يا ولدى فانا عدنا ليلا ، ولم نلتفت يمنا ولا يسرة لانبشغلنا بجرح أخيك سليمان ، وانت هل مررت بالمكان الذى كنا فيه ؟ »

قال : « نعم وصلت اليه فرايت اثر الدم ، ووجدت القباء ممزقا

وعليه جلد الدم فعجبت لتزيقه «  
فقال الرجل : « لا تعجب يا ولدى لتزيقه لانه مزق قلبى فانتقم  
منه فاعذرنى »

فاستغرب حسن ذلك وقال له : « بالله الا قصصت على خير هذا  
القباء ؟ »

فقال له : « اعفى من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا »  
قال : « وماذا قلت ؟ »

قال : « ألم أقل ان هذا القباء هو الذى مزق قلبى لانه كان دليلى  
الى الفريسة المطلوبة فاذا هى ولدى وفلذة كبدى »

ففطن حسن لامور كثيرة كانت موضع شكه ، وتذكر انه ليس من  
يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفة لانه اخذه من عنده ولم  
يلبسه قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس ، وظل ضامتا  
برهة لا يتكلم ثم قال : « الا تقول لى من الذى أغراك بقتلى ؟ . فانى  
أخشى ان أنهم أناسا أبرياء »  
قال : « أمرنى بذلك رجل كبير فى هذه المدينة ، وهو صاحب السلطان  
الأقوى فيها »

ففهم حسن انه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم  
بما بين طارق وعرفة من الصداقة . فترجع لديه ان لعرفة بدا فى  
هذه المكيدة ، لكنه أسرها فى نفسه واعتصم بالصبر الى ان يتم مهمته  
بمكة

واراد سليمان ان يذهب الاتقباض عن صديقه فقال لأبيه : « كيف  
رايت هذا الصديق يا أبى ؟ »

فتنهده أبوه وحاول الابتسام وقال : « لم أكن أشك فيما قلته لى ،  
ولكن سوء حظى ساقنى الى ما ارتكبته ولكنى أجد الله على خلاصنا  
من هذا الخطر » . ثم التفت الى حسن وقال : انى أعتذر اليك من  
تعمدى قتلك على غير معرفة بك ، ولا اظننى دفعت الى ارتكاب الجريمة  
الا بما جنيته من الذنب برجوعى عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما » .  
قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم  
عاد أبو سليمان الى الكلام فقال : « كنت من التوايين الذين ندموا على  
تخلفهم عن الحسين بن على ، حتى قتل ظلما فى سهل كربلاء . ولكنى  
لم أثبت على توبتى فانتظمت فى خدمة الذين قتلوه ، ولا ريب ان عملى  
لم يرض الحق سبحانه وتعالى ، وعلى ان أكفر عن ذلك بتكرس ما بقى  
من حياتى لنصرة أعدائهم ، وقد علمت أنك سائر الى مكة فهل  
تستصحبنى ؟ . والا فانى هائم على وجهى فى هذه الصحراء »

فقال حسن : « اذا رافقتنى فانى آنس بك وأتخذك اباً لى لان سليمان اخى ، ولكن ارى ان ... » . واسكته الحياء

فقال أبو سليمان : « تكلم يا بنى ولا تخف فانى بمنزلة أبيك ، بل أنا خادم لك ولا أستنكف من أمر أجريه فى خدمتك . قل ما بدا لك »

قال حسن : « اذا كنت ترى أن تتفضل على وتعاملنى معاملة الأب لابنة فان لى عندك طلباً أستحى أن اكلفك به »

قال : « لا تستح يا بنى . قل »

قال : « أحب فتاة فى هذه المدينة ، وقد خطبتها وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلى فى هذه الحال »

قال : « نعم . ماذا تريد منى ؟ هل تريد أن أوقف نفسى لخدمتها ؟ »

قال : « كلا فانها فى بيت أبيها ولكننى قليل الثقة بمن حولها »

قال : « من هى الفتاة ومن هو أبوها ؟ »

فوجم حسن برهة ثم قال : « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها - ولا ارى بدا من ذلك - فأخبرك انها سمية ابنة عرفة الثقفى »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت أبو سليمان وازداد لونه امتقاعاً وإطرق وصارت لحيته ترقص فى صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد أدرك ما جال فى خاطره . وجعل أبو سليمان بهم بالكلام ثم يمسك لانه كان مطلعاً على تردد عرفة على مجلس طارق ، وعرفة مشهور فى المدينة بخيائته وسوء نيته

أما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلاً : « لا اكلفك اطلاقاً على سر ، فقد فهمته وهذا يكفى . اما الفتاة فخطيبتى ولا شىء يمكن أن يثنىها عنى أو يثنينى عنها . وانما ارجو أن تبحث عنها وتعرف أحوالها وهذه هى وصيتى اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه » فقال أبو سليمان : « أنا عند ما تريد ، وسأولى أمرها اهتمامى ، كما اهتم بولدى هذا . كن فى سكون وراحة بال »

فلما فرغ حسن من أمر سمية عاد الى التفكير فى الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه أنه قد يلقي خادمه فى المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفى بإبلاغ عبد الله بن الزبير فقد الكتاب ويرى ما يكون ، فنهض مودعاً . فقال له أبو سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذى كنا فيه أمس . اخرج من باب آخر وأنا ارسل معك خادمى يهديك الى الطريق ويسوق جلك بدلاً من خادمك ، وسأقدم لك جلاً أحسن من جلك فأنعم بالأا وكن على ثقة اننا أنا وسليمان فى خدمتك حتى تبلغ مرامك » .

ثم صاح : « يا بلال » . فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : « هبىء الجممل الاشرم ، وامسأ القرب ماء وأعد زاد السفر » . فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال أبو سليمان لحسن : « اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة »

فقطع حسن كلامه وقال : « فاتنى أن أخبركم عن ابل البريد ، فقد رايت ثلاثة منها دخلت المدينة في هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة » قال أبو سليمان : « لا يبعد انهم جاءوا لطلب نجدة أو مدد ، أو بخبر فتح أو شيء من ذلك ، أما أنا فأنى سانتقل من هذا البيت الى سواه وأختفى يومين أو ثلاثة حتى لا يرانى أحد ثلثا يطلبوننى للمسير معهم » ثم ودعهم حسن وركب الجممل وسار بلال في ركابه ، وبود حسن لو يبعد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه أراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك .



## سمية في منزل سكينه

فلنترك حسنا فاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من امر سمية بعد سفره ، فقد تركناها عائدة الى بيت سكينه ومعه عبد الله خادم حسن يسير في خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : « قد وصلت الى مأمنى فانصرف » . وكانت قد استأنست به لأنه تقفئ مثل أبيها فلما ودعها قالت له : « قد علمت يا عبيد الله منزلة حسن منى فارعه وكن صادقا في خدمته »

فقال انى عبدك وعبيده يا مولاتى ، وانى أفديكما بروحى »  
فاطمات سمية وأشارت الى براسها اشارة الوداع ، فتحول مسرعا يلتبس باب المدينة ليلحق بسيدته

اما سمية فانها اقبلت على بيت سكينه حوالى العشاء ، فتظاهرت بأنها كانت فى بعض جوانب المنزل ، وسارت الى مجلسها ، فرجبت بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت : « كنت مشغلة فى بعض الغرف هنا » فقالت لها ليلي : « قد بحثنا عنك فلم نجدك ، وأخشى أن يكون أباك استبطاً عودتك »

قالت : « ربما استبطانى ، ولكننى هنا فى مامن من غضبه ، ومتى استبطانى بعث فى الثرى »

فلما سمعتها سكينه تقول ذلك أمسكت بيدها وقربتها اليها حتى أفعدهتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : « أهلا بك يا سمية انك من أعز الأحياء » . وكانت سكينه تستلطف سمية وتحبها فقالت سمية : « لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سيط الرسول ، ان أقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا »

ثم جاء الخدم يدعون سكينه الى المائدة ، وقد مدت الأسمطة فقمين للعشاء . وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت أبيها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها أنه غائب عن البيت ويحسبها فيه . فرأت أن تستأذن سكينه فى العودة الى البيت فأذنت لها ، وبعثت معها بعض الجوارى ليوصلنها اليه

ولما وصلت سمية الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفها الخدم

فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهى تقول : « لقد  
أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنأ »

وكانت هذه الجارية حبشية الأصل اسمها أمة الله ، تحب سمية  
كثيرا ، كما أن سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما أبطأ قدمها في  
تلك الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية  
الباب ففتحت لها ، وترامت عليها وقبلتها ورحبت بها ، فقالت لها  
سمية : « ألم يأت أبى ؟ »

قالت : « جاء نحو الغروب ودخل الحجرة الملوثة وأقفل بابها ،  
وما زال هناك ولا يدرى أحد ماذا يعمل لأنه أنار السراج وحله بيده  
الى الغرفة على عادته »

فدخلت سمية غرفتها وخفت ثيابها لتوهم أباهما اذا رآها أنها في  
البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه في تلك الحجرة طويلا لانه  
كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون  
ما في تلك المحفة المخزونة هناك . ولولا خوفهم من غضبه واستبداده  
لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطاته

ثم رأت سمية أن تلجأ الى فراشها قبل خروج أبيها من مخبئه  
مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما أساء الظن بها ،  
فجلست على فراشها ، ودعت أمة الله لتمشط لها شعرها قبل  
النوم فجثت الجارية خلفها وجعلت ترح الشعر وتمشطه ووجه  
سمية الى باحة الدار ، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة أمة الله  
ببعض شؤونها الخاصة فقالت لها : « هل شغل بالكم غيابى الليلة ؟ »  
قالت : « نعم يامولاتى ، لأنك قلما تطيلين الغياب ، ولا سيما ان  
عبد الله جاء للسؤال عنك »

قالت : « وأى عبد الله ؟ »

قالت : « الرجل الذى جاء صباح اليوم »

فعلمت سمية أنه عبد الله خادم حسن ، فبغت لعلمها أنه فارقه  
ليلحق بسيدة على عجل فادارت وجهها الى الجارية وقالت لها : « متى  
جاء ؟ »

قالت : « جاء قبل وصولك بقليل »

قالت : « وهل جاء وحده ؟ »

قالت : « لم أر معه أحدا »

ففكرت سمية فى الامر ، فوجدت أنه جاء بعد أن فارقه بساعة او  
ساعتين ، فتبادر الى ذهنها أنه لم يأت الا لغرض أرادته حسن منها ، او

لشر أصابه ، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت في التفكير ، وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك

وبينما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان اباهم خرج من الحجرة السرية . ثم اختفى النور وسمعت تصفيقا فعلمت ان اباهم يدعوا الخادم فخافت ان يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية : « لم يعد لي طاقة بالجلوس فقد اخذ مني النعاس مأخذا عظيما فاتركيني ، واذا سال عنى ابي فاخبره بانى نائمة منذ حين » . ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها : « لا تخافى » . وتمددت سمية في فراشها وتظاهرت بانها استغرقت في النوم ، وبعد قليل سمعت الخادم يسال الجارية عنها ، وسمعتها تذكرك له انها نائمة فانصرف

واصبحت في اليوم التالى وهي ما زالت في حاجة الى النوم ، فظلت في الفراش حتى الضحى ، ثم جاءتها جاريته بماء للفسل وبطعام ، فسألته عن أبيها فقالت : « أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل ، فخرج وهو لم يتم لف عمامته »

فأطرقت سمية وفكرت في الامر ، فحدثتها نفسها بان لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد أبيها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها أمس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما أصاب حسنا - وذلك شان المحب البعيد عن حبيبته فانه لا يكاد يطمن قلبه عليه واذا سمع احدا يذكره تبادر الى ذهنه انه في خطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك - فكيف بسمية وهي تعلم ما ينويه أبوها خطيبها ؟ . فلم تتناول من الطعام الا قليلا ، ولبثت جالسة تفكر في سبب خروج أبيها وتخاف ان يكون فيه ما يسوء خطيبها



قضت سمية أكثر النهار في قلق واضطراب ، تارة تمشي في الدار ، وأونة تخرج الى البستان ، وهي تتوقع ان ترى عبد الله آتيا أو تسمع خبرا . ثم سمعت اذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرأت اباهم داخلا فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يسدو منه . فدنا منها وابتسم وناداهم اليه فتبعته وهي ما زالت في اضطراب ، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى اقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال :

« كيف قضيت يومك أمس عند سكينه ؟ »

قالت وهي تتبعه الى وسادته التي تعود الجلوس عليها : « قضيت مسرورة ، وعدت وانت في الحجرة فتمت ونهضت في هذا الصباح ، فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالي »

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامة متكلفة فلما جلست قربها منه وضما وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنهما لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيه من التهيج العصبي الناتج عن القلق ، وقبلت يده فاذا هي ابرد من شفتيه . وتوقعت ان تسمع منه شيئا بعد هذا التملق فاذا هو يقول لها : « اظنك مللت طول المكث في هذه المدينة ؟ »

قالت : « اذا كنت انت في خير وسعادة فكل حال ترضيني »

فأمجبه قولها وألقى يده على كتفها وجعل يلامب شعرها بين أنامله ثم قال : « بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد ، هذا هو البر الذي كنت ارجوه منك . فالحمد لله الذي اذهب ما كان يخامر ذهنك ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك من النزول على حكم آبائهن »

فأحست سمية من هذا التعريض كان صخرة وقعت على رأسها ، واسرع خفقان قلبها . ولو انتبه أبوها وهي مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها ولأدرك اضطرابها . أو لعله أدرك وتجاهل خبثا ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : « سنذهب غدا لترويح النفس في العقيق فانه متنزه جميل ، فهل يسرك ان نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي يومنا هناك ؟ »

فعجبت سمية من عناية أبيها بأمر نزهتها والترويح عنها ، ولا سيما انه كان لا يخاطبها بالحسنى أو يلاطفها الا اذا كان له مارب من وراء ذلك . فأصبحت لا تسمع منه مثل هذه اللاطفة الا توقعت شرا ، ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته فقالت : « أشكرك يا أبى على هذه العناية »

فقطع كلامها وقال : « لاشكر على واجب ، فاني أبوك ، وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خيايما وطعاما ويسيروا أمامنا الى العقيق قبل الفجر ، ثم نركب أنا وانت عند طلوع الشمس ونقضي يومنا في العقيق ، فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها » . قال ذلك بنفحة الاب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته ، على انها كانت أشد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها انها ربما استطاعت في انشاء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله أو تسمع خبرا عنه أو عن حسن . فانت على أبيها وقبلت



يده ، فقبلها ثم صفق فجاء عبد أسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيبا على أهل بيته . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى أفتس الاتف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر أن يتسم فاذا فعل فانه يكشر عن أنيابه . فلما وقف بين يديه قال له : « يا قنبر ، اننا عازمون على الخروج في صباح الغد الى العقيق فأعد ما نحتاج اليه من الخيام والاطعمة ، وهبى الهودج لسمية ، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ، وسنلق بكم بعد ذلك »

قال : « الامر لمولاي » . وخرج

ثم نهض عرفة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها أمة الله أن تنهيا لمرافقتها في صباح الغد



بانت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تتنابها ، وتربها حسنا في خطر ، ورات مناظر مخيفة أخرى ، فنهضت وهى في اضطراب شديد . فاذا أبوها قد خرج ونهيا للرحيل ، وجاءتها الجارية فمسطتها وألبستها ثيابها . ثم ركبت معها الهودج ، وركب أبوها بغلة ، وساروا وقد أمسك بخطام الجمل أحد الخدم

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة في الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت أمة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد في استغرابها شدة ملاحظت في وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالفت سمية في التطلع نحو الطريق الذى يؤدى الى مكة لعلمها ترى اثرا أو تستطلع خبرا فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجالا ، وقد تفرق العبيد بين التخييل وحول المستنقعات يجمعون العبدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم أمر هذا المعسكر ، ولم تر بدا من أن تسأل أباهما فاخرجت رأسها من بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد أركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام أن يظل في مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتطلع الى كل جهة والقلق باد في عينها

وفيما هى تتطلع سمعت جعجة جل يتألم فالتفتت فرأت جل حسن الذى ذكرنا أمره ولم تكن قد رآته الا في أثناء مقابلتها حسنا في المساء ، ولكن صورته انطبعت على ذهنها . فلما رآته خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب ، فاوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرجحت انه جل حسن وجعلت تفكر في الامر ، فخيّل اليها ان حسنا

قتل وقد أخذ قاتلوه رجل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعا واشفاقا .

وكانت أمة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تجرئ على مخاطبتها في هذا الشأن إلا لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم : « ما بالك يا سيدتي تبكين لا أراك الله سوءا ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية أجهشت في البكاء حتى علا صوتها : فأمسكتها أمة الله وقبلت يدها وقالت لهما : « بالله كفى عن البكاء وأخبريني ما سبب ذلك فلعلى أنفعك في شيء »

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها ، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد أباهما عاد ، ولارات أحدا يسمعا ، فقصت على جارتها الحديث مختصرا ، وأطلعتها على مكتون قلبها . فشاركتها الجارية البكاء ثم قالت لها : « انك لم تتحققى ان هذا الجمل جل حسن ، وهبى انه جلله فليس معنى هذا انه أصيب بسوء ، ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض أهل هذا المعسكر انكسر فتركوه ، ومهما يكن من شيء فليس هناك ما يدعو الى الاخذ بالظن والتوهم »

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه الى منزلها في تلك الليلة فقالت : « ولكن ما سبب رجوع خادمه الينا ؟ »

قالت الجارية : « قد يكون جاءك برسالة من حسن فلما لم يجد عاد اليه بها وسافر معه ، ولولا ذلك لرأيتنه أمس . وقد مضى يوم ونحن الآن في ضحى اليوم الثانى ولم نره »

فقطعت كلامها وقالت : « اتظنينه اذا علم بسوء أصاب حسنا ، ينقل ذلك الخبر الى ؟ » . قالت : « دعى عنك هذه الافكار وتوكلى على الله »

وفيما هما في الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان ابا سمية قد عاد ، وبعد قليل وصل الى محاذة الهودج فنادى سمية فأطلت عليه فقال لها : « لعلى غبت عنك طويلا ؟ »

قالت : « نعم ، وقد رأينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها »

فأجابها : « وسأحاول إصلاح الرسن في راس البعلة » . ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وحده قاصدا مكة » قالت : « ولماذا ؟ »

قال : « جاء يزيد الحجاج بن يوسف أمس يستقدم طارقا ورجاله مددا له في حصار مكة وعما قليل سافرون » . قال ذلك وساق بقله

متظاهرا بأنها هي التي أسرع من تلقاء نفسها ، فانقطع الحديث .  
وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير في حسن لعلها تلمس تعليلا  
يربح بالها . والمرء مبال الى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس  
يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليه  
تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسه مخرجا من سوء عواقبها  
ومنهم من يزيده قلقا ولكنه لا يلبث وان طال قلقه ان يتوصل الى حل  
يتوكل عليه ريثما يرى ما ياتى به القدر

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينة ،  
فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء  
وغابات النخيل ، وهي كأنها لا ترى شيئا لاستغراقها في عالم الخيال ،  
فلم تنتبه الا على رائحة الشواء ، فالتفتت فاذا هي على مقربة من  
ثلاث خيام : اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت  
فراحت نفسها على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيما حولها  
فاذا هي ما زالت على مقربة من المدينة وخيام المعسكر ظاهرة .  
وتفرست في الخيام فأدركت انها خيامهم ، فاستغربت ذلك ولكنها لم  
تعلق عليه أهمية اذ لم يكن لها رغبة في العقيق او غيره

وجاء الخدم فأنأخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية  
وجاريتهما ودخلتا الخيمة ، ثم رأت سمية أباهما واقفا مع عبده على  
انفراد ، وكانت تكره هذا العبد كرها شديدا لغلظ طبعه وفظاعة  
خلقته ، فاستعازت من شرهما بالله



## القتل أو الزواج بالحجاج

عادت سمية الى هواجسها بعد ان دخلت الخيمة ، فأخذت تفكر في حسن وجهه ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازداد بلبالها . ثم خرجت أمة الله لمساعدة بقية الخدم في اعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها

وفيما هي على تلك الحال سمعت سعال أبيها ، ثم رآته والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعازت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رأت العبد يبطئ بينما أسرع أبوها حتى وصل الى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها : « كيف رايت هذا النهار ؟ انه نهار جميل اليس كذلك ؟ »

فظهرت بالابتسام وقالت : « انه نهار جميل ، ولكنني سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وانا ما زلنا بباب المدينة ! »

قال : « ان العقيق بعيد فأحببت أن نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق . وما أريد الا أن تكوني مسرورة فرحة والا أراك منقبضة النفس وقد تهيات لك اسباب السرور وانك لتعلمين حبي لك ، واني انقطعت عن العالم لاجلك . . ولا ادخر جهدا في سبيل راحتك وسعادتك »

فلما رأت مبالغته في التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكنة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : « ولقد سرني منك انصباعك الى مشورة أبيك في شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الى ما هو جدير بأمثالك . ويسرني أيضا أن ابشرك بسعادة قد وفقك الله إليها ، ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يبطنك عليها »

فازداد قلقها وأحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد في اضطرابها ، فظلت ساكنة وقلبا يخفق ، ومالت الى استطلاع ما في نفس أبيها ولكنها خافت أن يكون في علمها بذلك ما يسوؤها ، فلبثت صامته لا تدري ما تقول . وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ، ويتشافل بالعبث بلحيته . فتوقع أن يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامته دنا منها وهي مستندة الى عمود الخيمة ووقف أمامها وأسند يده الى العمود وجعل يده الأخرى على كتفها . فاضطربت وازداد قلقها فلم

تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : « لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة التي أعددتها لك ، ألا يسرك أن تعلمي بما يبذل أبوك في سبيلك ؟ أنك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش » . قال ذلك وأشار الى المعسكر

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لأحد كبار رجال الجيش ، فتحققت سوء ما أضمره لها بالأمس وأنها مقبلة على خطر شديد ، فارتبكت وحارت في أمرها ولم تدري بماذا تجيب ، ولكن الاضطراب بدا على وجهها . ولو أنه تفرس في قرطبيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكي خفقان قلبها . وما ارتعاشهما الا من رجوع ذلك الخفقان . واحمرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دماغها في معصميهما والنظر اليها في حين أنها لم تكن ترى شيئا لأن الدمع غشى بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصميهما . فلما رآها تبكي تحقق أنها لا تزال عالقة القلب بحسن ، فأراد أن يقطع أملها منه فقال لها : « ما بالك لا تجيبين ؟ . ألم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة ؟ أم لم تفهمي مغزى كلامي ؟ أنك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بني أمية المحاصرين مكة الآن ، وإذا أشكل عليك فهم مرادى فاعلمي أنك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو من ثقيف مثلنا ، وله ما لا أزيدك بيانا عنه من علو الشأن »

فلما سمعت تصريحه لم تعد تتمالك نفسها ، ففطت وجهها بكهما وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التئهد حتى كادت تختنق وهي لا تدري بماذا تجيب ، مخافة أن يفتك بها ، فلم تر سبيلا غير البكاء . فلما رآها تبكي أمسك يدها وأبعداها عن العمود بلطف فطاوعته وهي تباليغ في الإطراق فقال لها : « أحسب صورة ذلك الفلام في ذهنك ، مع أنه قد مضى وانتهى أمره فلم يبق لك سبيل اليه . فإذا كان في قلبك بقية أمل فيه فأنزعها وأطرحها جانبا »

فأجفلت سمية ، ورفعت رأسها ونظرت الى أبيها وعيناها تقطران دموعا وكأنها في شك من قوله ، فابتدرها قائلا : « صدقيني انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا سبيل له اليك ايضا ، لأن أمره قد انقضى وأصبح في عداد الأموات »

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : « حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا . انه لم يموت ، انه حي » . قالت ذلك واستغرقت في البكاء ، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه في أرض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها

وأطلقت لدموعها العنان وأبوها ما زال واقفا وقد بفت لما رآه منها ،  
على أنه قال لنفسه : « انها لا تلبث أن تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت  
موت حسن عادت الى رأى » . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف  
بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : « اراك كأنك لم تصدقي قولى مع أنك  
تعلمين انى لم اكذبك قط . صدقيني ان حسنا قتل فى أثناء خروجه  
من المدينة فلا سبيل الى رجوعه . أم تريدين أن تقتلى نفسك من  
أجله ؟ »

فصاحت مولولة وقالت : « نعم أقتل نفسى ، ولا غرض لى فى الحياة  
بعده . لقد قتلتموه ظلما وغدرا ! . وبلك يا ظالم ! . كيف فتلته ؟ .  
أقتلنى معه . . أقتلنى ! » . قالت ذلك وعادت الى البكاء ، فلما رأى  
عرفجة تصليها عمد الى الملاينة فقال لها : « انا لم أقتله ولكنه قتل  
بذنبه . ولا فائدة من البكاء عليه ، فاشكرى الله على أنه مات قبل أن  
يقترب بك ، والا ما وجدت حظوة فى عيني الحجاج »

فقطعت كلامه وقالت : « ما لى وللحجاج ؟ انى لا أريد غير حسن .  
حسن خطيبى . هو وحده حببى حيا أو ميتا » . ثم أجفلت وقالت :  
« لا لا ، لم يمت حسن ، بل هو حى وأيدى الظلمة اللئام تقصر عنه »  
فقال عرفجة : « الا تزالين تنكرين قتله ؟ هل أريك جثته لىكى  
تصدقنى ؟ » . فوثبت سمية من مجلسها وقالت : « لا . لا . لا ترىنى  
أياه ميتا . ويلاه ! . قتل حسن . قتلته أنت يا ظالم ! . فاقتلنى وأرج  
نفسك منى وأرحنى من الحياة . أقتلنى كما قتلت رجلا انقذك وأنقذ  
أهل بيتك من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » . قالت ذلك  
وقد أحست بقوة عجيبة ويشتت من الحياة . فلما سمع عرفجة  
تقريعها صاح بها : « أقصرى يا فاجرة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين  
أباك ؟ . والله لولا حرمة البنوة ولولا أن يقال انى قتلت فتاة لمزجت  
دمك بهذه المياه . . . ولكنى أعاملك معاملة صبية حقاء ، وسأصبر  
عليك قليلا فاذا أبيت الا ما بدا من وقاحتك فانى قاتلك بهذا الخنجر ! »

قال ذلك واستل من منطقتة خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رأت  
النصل تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهى تقول : « اضرب .  
أغمد خنجرك فى هذا القلب ، اطعن ، اتخوفنى بالموت ؟ . ان الموت  
أحب الى من الحياة »

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا : « أهذه نتيجة تعبى فى تربيتك  
يا فاجرة ؟ لقد حل لى قتلك ، ولكنى لا ألوث يدى بدمك وسترين قبل  
موتك جميع أصناف العذاب » . ثم صاح : « قنبر » . فاقبل ذلك  
العبد بأسرع من لمح البصر كأنه كان فى جيب عرفجة وأخرجه بيده ،

وقال : « ليك يا مولاي » . فقال له : « شد يدي هذه الخائنة بالأمراس  
وقيد رجلها بالحبال وسأريها عاقبة العناد »

فلما رأت سمية قنبر مقبلا نحوها وثبت من مقعدها وصاحت به :  
« اذهب يا عبد السسوء لا تدن مني . أغرب من وجهي ، لا تدن  
مني . اذهب قبح الله وجهك » . قالت ذلك وهي لا تعي ما تقول

أما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعد له لمثل هذا الغرض ،  
وهجم عليها وهو لا يبالي صياحها فقبض على يدها وهي تحاول  
التخلص منه ، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال  
ونسيت حزنها ، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف ، فلما  
رأها تدفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة  
دوت دويًا عظيمًا وجذبها من يدها فلطم رأسها عمود الخيمة ، فوقعت  
مغمسيا عليها ، فأخذ في شد وثاقها غير مكترث لحالها .

وكان الخدم قد سمعوا صياح سمية ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على  
الاقتراب من الخيمة إلا أمة الله جاريتها فانها هرولت خلصة واستترت  
وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تسترق السمع . فلما رأت  
هجوم قنبر على سيدتها علمت أنه لن يحجم عن قتلها ، ثم سمعت  
لطمه عقبها سكوت فخافت أن يكون قد أصاب سمية سوء ، فلم تر  
سبيلا إلى نجدها إلا بالحيلة ، فأسرعت إلى عرفة وترامت على قدميه  
وقبلتهما وقالت : « بالله إلا أشفقت على سيدتي وأفضيت عن جراتها  
وأنا أضمن لك كل ما تريده منها »

وكان عرفة يعامل سمية بذلك العنف لكي يحملها على قبول  
الزواج بالحجاج ، لأنه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه . وقد  
ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية ، وقد بلغ منه  
الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، ومات  
ضميره فلم يعد يهمه ما يرتكبه في سبيل بلوغ مقاصده . وكان يعلم  
أن الحجاج يرغب في الزواج بسمية ويبدل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كان  
يخاف أن تشكوه لعبد الملك بن مروان بواسطة سكينه بنت الحسين  
أو غيرها من أهل الوجاهة والنسب في المدينة . فلما اطمان إلى مقتل  
حسن أخبر طارقا بن عمرو أمير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير  
الحجاج بن يوسف وأنه يعلم برغبته فيها . وكان طارق أيضا مثل  
عرفة قسوة وطمعا ولا سبيل له إلى غرضه إلا إذا تقرب إلى الحجاج بما  
يرضيه ، فرأى أن يتقرب إليه بسمية فيخطبها له ويحملها إليه .  
فوافق عرفة وساعده على التخلص من حسن ودفع إليه بعض  
مهر سمية ، على أن يأخذ بقية المهر بعد وصولها إلى الحجاج بالقرب  
من مكة

. وكان عرفة يعلم ميل ابنته الى حسن ، ونفورها من الحجاج وغيره ، ويتوقع ابداءها فيها الأسباب لاقناعها بأية وسيلة ، وتواعد مع طارق على أن يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فإذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوى الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية ، فأراد اقناعها خارج المدينة وارسالها توأ الى مكة مخافة أن تفر الى سكيئة وتلتجئ الى بيتها في المدينة فتحميها أو تساعدوا في ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . أما بعد أن تسير الى مكة وينزوجه الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى . ولا يهمه أن تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته ، ولذلك أوصى طارقاً بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل في النجاة . تم احتال في اخراجها الى المعسكر كما تقدم . فلما رأى نفورها مما عرضه عليها من أمر الحجاج ، أصدر امره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيت أمة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها ، نادى عبده فخرج ، وأمر أمة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرات سيدتها ممضى عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فغرست سمية به حتى افادت ، واخذت في حل وثاقها . فلما رأت سمية جاريتها فوق رأسها قبلها وتحاول انماشها ، ارتدت روحها اليها ، وسمعت أمة الله تقول لها بصوت منخفض : « ماذا فعلت بنفسك يا سيدتى ؟ ما هذا الذى أرى ؟ »

فمادت سمية الى البكاء وقالت : « أنسا لينى يا أمة الله عن ما ترىته ، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله » فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست فى أذنها وقالت : « أخفضي صوتك لتندبر الأمر بالحكمة لأن العنف لا يجدى » قالت سمية : « دعينى يا أمة الله . فانى لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبى ومنية فؤادى حسن . لقد قتلوه لعنهم الله ! ليتهم قتلونى عوضاً عنه . »

فقطعت قلب أمة الله حزناً على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة ذكاء ، فتجلدت وقالت : « من قال لك أنهم قتلوه ؟ » قالت : « أنسا لينى ؟ . اما رأينا معا جله مكسوراً مهجوراً ؟ . وهبى أن ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد أخبرنى بقتله أبى الظالم الخائن ، وعرض على أن يربنى جثته رأى العين ؟ . هل بعد ذلك من شك ؟ وهل تلومينى اذا ندبت حياتى ونحت على شبابى ؟ . وهل



نرين سبيلا الى راحتي غير الموت ؟ »

فقالت الجارية : « ان أمو القتل لا يمكن ان نعهده يقينا حتى الآن ، وليس يخفى عليك رغبة ابيك في تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى ان حسنا قتل لكى يحول قلبك عنه ، ومع ذلك فان قتلك نفسك امر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقن انهم قتلوا حبيبك . فعليك ان تصبرى ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورايت الحجاج أو شك ان يبلغ مرامه منك ، فليس اسهل من ان تقتلى نفسك بتجرع السم قبل وصوله اليك »

قالت : « ومن أين أتى بالسم ؟ »

قالت : « انا أتيتك به ، فاسترطى على ابيك ان اكون في خدمتك ، وانا اهيء لك السم ، ومتى تحققت انقطاع الأمل ، أسعفتك به ، وتجرعت منه معك ، اما الآن فدعى العناد وتظاهرى بالرضا ، ولا يبعد ان يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر ، أو قبل وصولنا الى مكة ، أو لعنا نجد حسنا في الطريق فتذهبين اليه . وليس يليق بك ان تطلقى لنفسك عنان اليأس ، اذ ماذا يكون الشأن اذا قتلت نفسك وكان حسن لا يزال حيا ؟ »

فلما سمعت سمية كلام أمة الله أحست بانسراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال . والانسان سريع الرجوع الى الأمل لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، وحسب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حيا في البقاء ، ويندر ان يرتكب أحد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر . وما لبثت سمية ان استحسنت رأى جاريتها فقالت لها : « افعلى ما بدا لك ، فانت تعرفين ما فى قلبى ، فعسى ان يأتينى الله بالفرج على يدك »

فسرت الجارية لنجاحها فى اقناع سيدتها ، ولكنها شعرت بهول الموقف ، وكانت ترجح موت حسن . على انها عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدتها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة ، فلما رآها أومأ اليها ان تدنونه . فمشى منحرفا عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت : « انى رأيت سمية مطبوعة لك فى كل ما تريد ، لكنها استوحشت معاملة قنبر فلا تدعه يخطبك او يكلمك . ولا يخفى على مولاي ان من كان فى حال سمية لا يؤخذ بالعرف ، وقد خاطبتها الآن باللين فرائتها لانت ، ولا بد من جلسة أخرى ائتم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فلنعنى اكن فى خدمتها حتى نأتى الحجاج ولك على كل ما يسرك »

فاطمان بال عرفة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، واطاع أمة الله فى

ارسالها معها وقال لها : « لا بد من ذهابها الآن الى خيمة أعدوها لها في معسكرهم ولا آمن أن تسير وحدها ، فاذهبي أنت معها واكدي لها اني لم افعل ما فعلته الا رغبة في راحتها »

فقبلت أمة الله يده وقالت : « بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وأدواتها »  
فقطع عرفة كلامها وقال : « كل شيء معد لها في خيمتها بالمعسكر وما عليها الا الرجوع اليه »

فقالت أمة الله : « أدخل الآن عليها في الخيمة ، وكلمها كلاما لينا » .  
قالت ذلك ومشت فمشت عرفة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية ، فدنا منها وأمسك بيدها وقال : « لقد ساءني ما الجأتني اليه من الكلام الجافي ، ولكني علمت من أمة الله أنك فعلت ذلك بالرغم منك ، فانهض وسيري معها الى خيمتك في المعسكر ، وقد أوصيتها بأن تكون في خدمتك »

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرعت أمة الله الى يد عرفة وقدمتها الى سمية وهي تقول : « قبلي يد أبيك ليتم رضاؤه عنك » . فقبلتها .  
وكان اليهود لا يزال معدا لقبليها وأركبها ، وأمة الله معها ، وركب هو بقلته وسار أمامهما حتى أوصلاهما الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند . فتسلمه العريف وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر



كانت سمية في أثناء الطريق غارقة في هواجسها وقد زال أثر كلام أمة الله في نفسها . ولما مرت بالمكان الذي كان الجمل المكسور فيه رأت بعض العبيد قد نحروه وأخذوا في سلخ جلده ، فتصورت أنهم قتلوا حسنا ونحروا جلده ، وعظم عليها الأمر ولكنها تجلدت ، وكانت أمة الله تراقب حرركاتها خلصة . وبعد هنيئة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية أنها وقعت في الشباك وعز عليها أن تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا من حبيبها ، فاستوحشت وزاد قلقها — والفاتة اذا زوجها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها في أوائل أيامها الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وهي ترجع قتل حبيبها ظلما ، وترى أن أباه قد باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدة وبأن أمره بائذ لا مرد له ؟

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها اتاخوه وانزلوها وأمة الله معها ، ثم دخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها

هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها . وجلست أمة الله الى جانبها تحدثها وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاكل بما تراه من حركات الجند والعبيد والغيل والجمال وهي مستغرقة في الهموم . وكان أشد ما شغل ذهنها أن رأت كلبا ينهش خرقة سوداء ويلعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو في أثرها عدوه الى فريسة ، وتلك عادة الكلاب إذا لم تكن جائعة ثم اتفق أن قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها ، فما كاد بصرها يقع عليها حتى أجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من أمامها

فأمسكت الخرقة بأناملتين ورفعتها ورفستها فيها فإذا هي ملوثة بالدم . وما لبثت أن قلبتها وصاحت : « ويلاه هذا هو القباء . هذا قباء أبي قتل حسنا به ! »

فتناولته أمة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت : « كيف عرفت أنه قباؤه والأقية تتشابه ؟ »

فقطعت سمية كلامها وقالت : « قد عرفته من هذا الوشي على هذا الكم فاني طرزته بيدي وأنا أعلم الناس برسمه » . قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من أمة الله وأخذت تبكي وتقول : « قتلوه . لم يبق عندي شك في قتله »

فقطعت أمة كلامها وقالت : « وما علاقة هذا القباء بقتله ؟ »

قالت : « ألا تتذكرين أن أبي أهداه اليه يوم عزمه على السفر ، والح عليه أن يلبسه للوقاية من البرد ؟ ويل له من مشهود يوم عظيم . لقد لبسه القباء وأوعز الى أحد من صناعته أن يقتله وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هي بقية القباء وعليها الدم . فهل من بعد هذا شك في أنهم قتلوه ؟ . وما العمل ؟ كيف أسلم نفسي الى قوم قتلوا حبيبي ؟ » . قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت أمة الله : « سلمى أمرك الى الله ولا تيأس من رحمة . واعلمي أن ما يقدره الله واقع . فاصبري والله مع الصابرين »

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والرء قبل وقوع المصيبة يتوهم أنها إذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك أيضا أهله وذووه ، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . فلا غرو إذا صبرت سمية بعد ما تحققت من مقتل حبيبها

وفي أصيل ذلك اليوم نودى الجند : « الخيل الخيل » فركبوا بعد أن قوضوا الخيام ، وساروا والفرسان في مقدمتهم وأصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمر ، وكلهم بلباس أهل

البادية الا هو فانه لبس درعا فارسية كان قد جاء بها من العراق  
اما سمية فحملوها على هودج وبمعها خادماتها ، وكان يقود الجمل  
عبد ، ويسوقه عبد ، والى كل من الجانبين حارس على هجين . وكان  
طارق يتردد الى الهودج يتعمده ويسال اهله هل يحتاجون الى شيء ،  
ثم يركض فرسه الى اطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه



فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصيرها ولنرجع الى المدينة للبحث  
عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكيئة بعد ان  
اوصل سمية اليه . ثم اخبرت امة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال  
عنها فلم يجدها فرجع على اعقابها .

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكيئة قد اسرع للاقاة سيده خارج  
باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن في تلك  
الليلة . وتصور ما يحدث بسيدة من الاخطار فصار وهو يفكر في الامر ،  
ونسى نفسه فاخطا الطريق وخرج من غير الباب الذي خرج منه حسن ،  
ثم سار من طريق آخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيرا ما يتفق ذلك في  
مثل هذه الحال فيتحج الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا . وبعد  
ان سار ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ،  
وقف ونظر الى ماحوله فاذا هو بين النخيل لا يتبين الطريق ولا يدري  
اين هو ، ولكنه لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب ، فحول  
سيره الى جهة اخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان  
كلما بعد عن المدينة استدلل عليها ببعض ما يبدو فيها من الانوار فمرجع  
الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في  
انتظاره ببعض ضواحيها ، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى  
بيت سمية لسبب ما ، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرقعة فلم يجد  
سفية هناك كما تقدم ، فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا  
الاضطراب

وقبل الفجر سمع جعجعة جل يتالم فولى وجهه شطر جهة الصوت ،  
وقد خيل اليه انه جل سيده ، فاستانس به ، واخذ ينادى الجمل بما  
تعود ان يناديه به من الاسماء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه  
بقى في مكانه حتى بلغه عبد الله فعرف انه جل سيده حقا غير انه  
لاستطيع النهوض كانه معقور ، ففاص عبد الله في الماء حتى دنا منه  
فاذا الجمل راسه اليه كانه يحييه ويستنجده

ولما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسنا عنده ، اضطرب وشغل باله ، فأسرع الى الرحل فنزعه عنه ، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى أن يكون قد حدث لحسن . واشتد به الاضطراب والقلق . ولم يجد فائدة من أن يسأل عنه في بيت عرفة لانه لم يجده هناك بالأمس ، وقد خشى اذا سأل سمية عنه أن يزيد في بلبائها . فخطر له أن يقصد الى المكان الذي باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلي الاخيصة ، فيسار اليه ، ومر اثناء مسيره بمنزل عرفة فتنسم الاخبار ، ولما لم ير أثرا لحسن واصل السير حتى أتى البيت فلم يجد به أحدا ، فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد أسطوانة مخنومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى مكة . فلما رآها ازداد قلقه وقال في نفسه لو أن حسنا ترك الجميل باختياره لحمل هذا الكتاب معه ، لانه انما جاء هذه الديار من أجله . فترجع لديه انه قتل أو أصيب بمكره ، فقضى نهاره لم يذق طعاما ، وأخذ يشدب موله تارة ، ويعمل نفسه بلبقياه تارة أخرى . ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينة الا مر به وهو يتفرس في وجوه الناس ويتنسم الاخبار ، فلم ير ألا انهماك الناس في اعداد النجدة للحجاج عملا بما حله البريد اليهم . ويات ليلته بالمدينة وهو يفكر في الامر ، فقرر رايه أخيرا على أن يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من أجلها ، على أن يبحث عنه في أثناء ذلك



## عبدالله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة . وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي ، وخرجاً من المدينة الى مكة ، ودعا كل منهما الى بيعته هو ، على ان عبد الله رأى الا يتظاهرا بذلك والحسين في مكة لعلمه انه أولى منه بالبيعة . فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل امره ، وجعل مكة عاصمته . وبايعه أهل الحجاز واليمن . وحاربه بنو أمية ولكنهم لم يبلغوا منه وطراً ، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج يومئذ أحد أمراء عبد الملك ، ولهذا ثقة في شجاعته ، رغب الحجاج في قتال عبد الله ، وقص على عبد الملك رؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبد الملك ان يشخصه لقتله ، فأشخصه في ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وأعطاه كتاب أمان الى ابن الزبير ومن معه ان اطاعوا ، وأوصاه بأن يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ . وحدثت بينه وبين ابن الزبير مناوشات لم يتم الفوز فيها لأحدهما ، فمل الحجاج ، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ، فأذن له وأنجذه بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد بذلك أذى الحجاج ، وحاصر الكعبة ورمائها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه ، ولكنه أصر على رأيه . و طال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبى قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

وكان ابن الزبير مقيماً مع أهله بالمسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال . وأما الحجاج فكانت خطته ان يستمر في تضيق الحصار على عبد الله ، وبعث بسرأياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والمخرج منها . ولما طال أمد

الحصار دون أن يستسلم المحاصرون. استنجد الحجاج طارقاً أمير المدينة  
كما تقدم



ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جل أهدهاء إياه أبو  
سليمان ، ومعه العبد بلال . وبعد مسيرة أيام اشرفا على مكة عند  
الضروب فראياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال  
بلال : « انى أرى الطلائع الاموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير  
أن يمنعونا ، فهل تأذن لى فى الخروج اليهم للاستطلاع ثم اعود اليك ؟ »  
فوافقه حسن على ذلك ، واوصاه بالرجوع اليه عند حائط انتظره  
فيه بعيداً من الطريق العام

وسار بلال ، واتجه حسن الى ذلك الحائط ، وهو من آثار بناء قديم  
هناك ، وترجل وعقل جلّه وراء الحائط ثم اتكا بجانبه بحيث لا يراه أحد  
من المارة . ولبت مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد فى  
اثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة ، ولكنه ما لبث  
أن رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلمّا آن  
العشاء استبطّاه وحسب لتأخره الف حساب ، ثم وقف وتسلى الحائط  
وجعل ينظر الى الأفق لعله يراه قادماً

وفيما هو فى ذلك سمع سعال بلال ، فالتفت فراه قادماً يعدو عدو  
الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها ، فلما وصل اليه قال :  
« لا سبيل لنا الى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار ،  
من كل ناحية حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد »

قال حسن : « وما الحيلة ؟ . لا بد من دخولنا »

قال : « ليس لنا يامولاي الا أن نصبر الى الغد ، لأبحث عن سبيل  
الى دخولنا »

فقال : « أتبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ »

قال : « كلا يامولاي ، فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك  
الدخول »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « اتعرف محمداً بن الحنفية ؟ »

قال حسن : « كيف لا وهو ابن الامام على ، وأخو الحسن والحسين  
من أبيهما ؟ »

قال : « ان له حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير ، فاذا وسطناه دخلنا مكة على اهون سبيل »

قال : « كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك ، لانه يزاحم الاول على الخلافة في الحجاز ، يزاحم الآخر على الخلافة في الشام . ألم تسمع بحديث المختار ؟ »

فقال بلال : « كيف لم اسمع به ؟ »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه : « لقد كان المختار يطلب بالخلافة لمحمد بن الحنفية ، ثم قتله مصعب أخو عبد الله بن الزبير المحصور في هذا الحرم الآن ، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه »

قال : « صدقت يامولاي ، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون أن يكلفه هذا بذلك ولا اراده ، وقد لجأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه ، وعلى هذا حمل الكرسي المشهور امره عند الناس ، وزعم انه كرسي الامام على ، كما ادعى ما يشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه »

فقال حسن : « هل رأيت ذلك الكرسي وهل تعرف أصله ؟ »

قال : « ان سر هذا الكرسي عندي ، وطالما جلست عليه قبل أن يصبح معدسا كما ادعى المختار »

قال : « وكيف ذلك يا بلال ؟ انك والله لو اسع الاطلاع »

قال : « ان الذي يعيش طويلا يرى كثيرا . فقد اتفق لى منذ بضعة سنين وأنا في المدينة اني اصطحبت رجلا اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة ، وكانت جدته أم جعدة أخت على بن أبي طالب . وكان يتردد الى جاره له زيات كنت أتردد اليه أحيانا ، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ما ينقذه على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين ، فأراد الطفيل أن يحتال عليه ليكسب منه مالا ، فاشتري من جاره الزيات كرسيًا قديما كان مهملًا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع ، وذهب به الى المختار وقال له : اني كنت أكتملك شيئًا وقد بدا لى أن أذكره لك . ان أبى جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ، ويروى أن فيه اثرًا من على . فقال له المختار : سبحان الله لمأذا كنت خبيرة ، ابعث به الى . فبعث به اليه وقد غشاه بملءة ، فدفع له اثني عشر ألف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف . ثم غشى المختار الكرسي بالديباغ وزينه بأنواع الزينة ، ودعا الناس الى المسجد حيث أراهم آياه بعد الصلاة وقال لهم : ( ان هذا الكرسي من ذخائر أمير



المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ) .  
فصدقه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسي معه الى ميدان القتال  
وقال ابن معه : ( قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هذا الكرسي محل فيه  
محل تابوت بني اسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم  
ينزلون مددا لكم ) .. »

فقال حسن : « لعلك تعرف ابن الخنفية ؟ »

قال : « نعم يا مولاي ، وقد شهدت كثيرا مما يتناقله الناس من  
أحاديث قوته البدنية . واذكر اني رأيته في حياة أبيه الامام علي ،  
وكنت غلاما ، وفي يد أبيه درع طويلة فأراد ان ينقص بعض حلقاتها  
فدفعها الى محمد وأمره ان ينقص منها كذا حلقة ، فقبض محمد باحدى  
يديه على ذيلها وبالأخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع  
الذي حددته أبوه . وهو يعرفني أيضا »

فقال حسن : « وماذا ترى ان نصنع الآن ؟ »

قال : « ان ابن الخنفية مقيم الآن بالشعب في جوار مكة ، فاذا شئت  
نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد »

فقال : « وهل تعرف الطريق اليه ؟ »

قال : « عرفته في أثناء غيابه عنك الآن ، وقد أوصاني بك مولاي  
أبو سليمان خيرا أراك أهلا له .. فانا خادمك حتى تبلغ أمانك »

فقال حسن : « بورك فيك » . وأخذ يهيم وحله للركوب وبلال  
يساعده ويقول : « اني أرى مكة في ضيق شديد ، وأخاف على ابن  
الزبير من عاقبة هذا الصبر ، فان الامويين غالبون آخر الامر على  
ما أرى »

فتذكر حسن ما هو قادم لاجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما  
يدخل مكة في الغد

سار حسن وبلال حتى اتيا أرضا صخرية مشيما بين شعوبها . ثم  
صعدا تلالا أشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد أوقدت به نار لهداية  
الضيوف كما هي العادة عند العرب . وهم حسن بان يسأل بلالا فاذا  
بهذا يقول له : « اننا على مقربة من الشعب ، وعما قليل تبدو لنا الخيام  
ونسلم صهيل الخيل ، فهل تريد ان ننزل في دار الاضياف رأسا ام  
نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه في أمر دخولنا مكة ؟ »

قال : « أخشى ان يكون في ذهابنا الآن الى خيمته ما يزعجه ، فلنترك  
ذلك الى صباح غد »

قال : « اذن نذهب الى دار الضيافة فإنهم لا يرون القادم اليها عن

سبب قدومه ، ومتى أصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت انا الليلة  
لأدبر الامر »

فأثنى حسن على غيرة . وبعد قليل لاحت لهما خيام عديدة  
منصوبة على غير نظام توسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف  
بعض الخدم ببابه أنه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوق بلال برهة وهو  
يتفرس في الخيام حتى تبين خيام الأضياف وعرفها من انفرادها عن  
سواها وقربها من النار . فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لفظا وكلاما .  
ثم ترجل حسن ، وسبقه بلال الى اقرب الخيام فلقبه رجل رجب به  
وسأله عما يريد ، وطلب اليه أن ينتسب ، فانتسب وقال : « اننا  
أضياف غرباء » . فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأفرد لهما خيمة  
ليس فيها أحد . فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لأحد الخدم ليأخذه  
الى المعالف ، ثم عاد الى حسن فوجد عنده طعاما أعده القوم ، فأكلا ،  
ثم خرج بلال ، على أن يعود بعد قليل ، وتوسد حسن على فراش من  
جلد فرشوه له ، وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس  
عليه فنام ، ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى أحلام مزعجة رأى  
فيها أنه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيدته ،  
فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم أفاق من نومه مذعورا فشكر الله لأن ذلك  
كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا يابيه .  
فأراد رؤية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريثما يطلع النهار ، وخرج  
للبحث عنه مند باب الخيمة حيث ظن أنه نام هناك ، وناداه فلما لم  
يجب ظنه مستغرقا في النوم ، ثم ما لبث أن تبين أنه لم يعد بعد ،  
وتفرس في النجوم فعلم أنه في الهزيع الأخير من الليل ، فقلق على بلال ،  
ثم التف بردائه انقاء للبرد ، وخرج ليبحث عنه حول الخيام



وفيما هو في ذلك سمع جعجعة جل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا  
هناك جملان على أحدهما ما يشبه الهودج ويقوده رجل ماش لم  
يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام ، فتبادر الى ذهنه أن رجلا وامرأته  
وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم  
في أواخر الليل بجوار مكة وهي في حصار شديد . فعاد الى خيمته  
وفي نفسه أن يستطلع حقيقة القادمين ، فجعل ينظر من شقوق في  
الخيمة تطل على الطريق ، فرأى أن الجمليين قد انبأ ونزل راكب  
أحدهما وهو رجل قصير القامة ، ملثم بعمامته وقد التف بعباءته . ثم  
رأى الرجل الذي كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجنة سريع

الحركة ، تسلم جل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول :  
« أترى يامولاي أن ابقى هنا مع الجميلين ، أم أسير في خدمتك ؟ »

فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلا : « امكث أنت هنا واحتفظ  
بما على الجمل فإنه أعمر شيء عندي كما لا يخفى عليك »

قال : « هل أسير في خدمتك الى خيمة الاضياف ؟ »

قال : « لست ذاهبا الى هناك ، فامكث أنت هنا ريثما أعود اليك ».

قال ذلك ومشى

وكان حسن يتوقع أن يرى زوجة الرجل الاول تنزل من الهودج ،  
ولكنه رآه ما زال مجلجا بغطائه ، ثم رأى المبعد عاد الى الجمل الذي يحمل  
الهودج وجلس بجانبه مستندا الى بطن الجمل ، وما لبث أن نام نوما  
عميقا وعلا شخيره . فاستغرب حسن ما رآه ، وكان قد تعب من  
الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد أن جلس قليلا عاد  
الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه ، فاطل برأسه  
من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحدا ، وحال الظلام بينه وبين  
الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد أهدقت الهواجس به ، فجدته  
نفسه بأن يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج ، ولكنه أحجم  
وقال : في نفسه : « لو كان بلال هنا لكلفته بهذه المهمة »

وفيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج الخيمة تقترب من بابها ،  
فادرك أن بلالا قادم ، ولم يشأ أن يناديه لئلا ينتبه العبد الآخر النائم  
بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب ، فرأى بلالا بهم بالاتكاء ، ورآه  
بلال فوقف وقال : « ما الذي أيقظك في آخر الليل يامولاي ؟ »

قال وهو يشير اليه أن يخفض صوته : « لقد استيقظت من زمني ،  
فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس خطوا رحالهم وراء خيمتنا ،  
وظهر لي من أمرهم ما أقلقني »

فقال بلال : « وما الذي تبغيه مني فافعله ، اني رهن اشارتك »

قال : « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال : « كلا وانما جئت من هنا »

قال : « تعال اذن » . وامسكه بيده فادخله الخيمة وأراه الجميلين  
والعبد النائم تحت الهودج ، وقص عليه ما كان من أمرهم الى أن قال :  
« فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدمهم ؟ »

قال : « ذلك شيء يسير » . ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا  
من الجميلين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد  
رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفا راجعا

سرعا حتى دخل الخيمة ، فبادره حسن سائلا : « لماذا لم تخاطبه »  
قال : « لأنى أعرفه وأعرف حكايته »  
قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « اجلس لأقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث . لقد نمت  
أول الليل بباب هذه الخيمة ولكننى ما لبثت أن استيقظت وأخذت أفكر  
في حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا . وخفت أن  
يكون علينا بأس إذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت أن أذل  
العقباء وأنت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الأمير  
كنت قد عرفته أيام كنا بالمدينة ولى عليه دالة . فلقيت الرجل في  
خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه  
صاحبى منه من باب خاص دون سائر الناس ، فلما أتته رجب بى  
وأكرمنى وسألنى عن امرى ، فقلت له أننا جئنا لتلمس من الأمير  
وسيلة ندخل بها مكة . فوعدنى خيرا ثم اجلسنى وجعل يسألنى عن  
حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها ، وكلما هممت  
بالنهوض أقعدنى حتى طال بى الجلوس . وبينما أنا أهم بالنهوض  
سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار فأقعدنى صاحبى وخرج  
وهو يقول : ( من الرجل ؟ ) . وسمعت من يجيبه قائلا : ( أنا عرفجة ) .  
ولما كنت أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا  
ما رأيته فى دار الامارة خرجت لاحقق امره فرأيت الرجل ملثما ولكننى  
عرفت انه هو صاحبى هذا من صوته وقامته »

وهنا تذكر حسن أن الصوت الذى سمعه لما أتاخ الرجل الجميلين  
يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه فى هذا الليل ،  
وتبادرالى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ،  
ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف  
بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال . ثم على فرض  
أن عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه فى هذا الشعب .  
ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى أن تكون التى جاءت معه فى الهودج ؟  
انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية ، فهل هى التى  
فى الهودج ؟ وخفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه . كل ذلك وبلال  
واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

فقال حسن : « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل فى هذا  
الليل ؟ »

قال : « كلا يامولاي لأنى رأيته يحدث صاحبى همسا فرأيت أن  
أنصرف لأخلى لهما المكان . ولما استأذنت صاحبى نادانى اليه وقال :

« موعنا غدا ان شاء الله » . فعلمت انه لا يزال على وعده فآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح »

فقال حسن : « وما الذي عرفته من امر العبد النائم بجانب الحمل ؟ »  
قال : « عرفت انه قنبر خادم عرفة ، وهو عبد سميج الخلق فظ الطبع يعرفه كل اهل المدينة »

قال حسن : « وما ظنك بمن في الهودج ؟ »

قال : « لا اظنه هودجا وانما هو محفة . ولا يبعد أن يكون فيها بعض النساء أو ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها »

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشجانه ، وتذكر ان بلالا لا يعلم شيئا من أمره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال : « انظنه يحمل ابنته معه الى هنا في مثل هذه الظروف ؟ »  
قال : « لا أخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا اظنه يبقيا محبوسة لانسمع لها صوتا ، ولا سيما ان المحفة ضيقة لا تكفى لكى تنام فيها »

فاطمان قلب حسن على سمية ولكنه بقي مشغول الخاطر بأمر المحفة ، وهم بأن يعود الى سؤال بلال في شأنها ، فاذا بهذا يتندره قائلا : « ليس في المحفة فتاة ولا امرأة ، فقد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها في منزله لا يطلع أحدا على ما فيها ، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها . فلعلها هي هذه »

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة ، ولكن القلق عاوده من جهة ما حل عرفة على القدوم في هذا الليل ، فقال لبلال : « متى نذهب الى ابن علي ؟ »

قال : « عند طلوع الشمس »

فعاد حسن الى فراشه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضيا ما بقي من الليل بين نوم وتقلب وهو اجس ، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجميلين وراء خيمته حتى بغت اذ لم يجد لهما أثرا ، وظن ان عرفة قد سافر

وواصل سيرهما بين الخيام ، وهى على مرتفع من الارض متشعب ، به للخيول والجمال مسارج وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها . فلما بلغا خيمة محمد ، وكانت رجة عالية قائمة على عمد عديدة ، رأيا بابها مسدلا فعلما ان محمدا في شغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهى ملتصقة بها ، فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما ألا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة في الخيمة تطل على خيمة الأمير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصر القامة عرف انه عرفة ، فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي أن نضيعها ويجب أن نطلع على سر

هذه المقابلة . وتفرس حسن في محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانث فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لاتزال ظاهرة في كفيه ووجهه وعينه

وخاف حسن أن يكون في تطلعه هكذا ما يؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد أن يعتذر فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له الرجل : « تفضل بامولاي وأجلس فاني أحب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التي يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءني بخشونته حتى صرت لا أبالي كتمان سره »

فنزل هذا القول يردا وسلاما على قلب حسن ، وفرح لتمكنه من نيل بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكرائه للاطلاع على السر ، وجلس بحيث يرى ولا يرى فرأى عرفة جالسا بين يدي ابن الحنفية ويخاطبه متعبا ، وسمعه يقول له : « أنت تعلم أنها الامام أنك اولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فانت وحدك ولي هذا الامر وليس بنو أمية سوى معتدين »

وظل محمد صامتا لا يتكلم ، فظنه عرفة راضيا بما يقول ، فاستأنف الكلام قائلا : « وانت تعلم بامولاي ان المختار قام بالدعوة ليعتلك ، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما تعلم ان السر الذي كان يستعين به على بث الدعوة جدير بان يقوم به من تندبه لذلك »

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر في أمر آخر ، في حين مضى عرفة في حديثه فقال : « ولا يخفى على مولاي الامام ان بني أمية الآن في شغل بعبد الله بن الزبير ، وأكثر جندهم منهمكون في حصاره ، والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق ، فاذا نذبت احدا وسيرته الى العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الرأي »

فرفع محمد رأسه وقال : « ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، فيه قتل ابي واخي غدرا وخيانة »

فرحز عرفة نفسه على البساط وقال : « ان السبب في ذلك الفشل لم يبق منه شيء الآن . واني ارى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق »

فقال محمد : « ومن تراه يليق لهذه المهمة ؟ »

قال : « أنك أنت الذي ستضع شرك بين يديه وتمهد اليه في النداء بصوت الله ، فأمر اختياره اليك »

قال : « وبمن تشير ؟ »

فسكت عرفة وأطرق ، وكأنه يخشى أن يصرح بترشيح نفسه

لهذه المهمة لثلا يساء الظن به ثم قال : « ان هذا الاندباب لا يكون الا  
بالهام من الله ، فاختر من يلهمك الله اختياره »  
قال : « واذا لم يلهمني الله ؟ »

فارتبك عرفجة في امره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه  
الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه  
وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحيات وقد طلب الحجاج منه ان  
يباع لعبد الملك ، وطلب منه ابن الزبير ان يساع له ، فأبى البيعتين  
ولبت في انتظار ما يكون من امر مكة وحصارها ، وذلك لانه كان عاقلا  
لا يجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل .  
على انه ظل يساير عرفجة وهو لا ينوى ترك الحيات  
اما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة فقال : « اذا لم تلهم اختيار احد  
لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسي »

فقال محمد : « واى كرسي ؟ »

فنهض عرفجة وتحول الى باب الخيمصة ونادى قنبر عبده ، ثم  
رجع ، وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار ، فوضعا  
بين يدي محمد وخرج . فقال محمد لعرفجة : « ما هذا ؟ »

قال : « هذا تابوت العهد ! » . ثم اخرج مفتاحا ورفع الستار عن  
المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح - حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر  
ويتناول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفجة وخبثه . ثم ما لبث ان  
راه مد يده الى داخل المحفة وأخرج شيئا مغشى بالديباج فرفع  
الديباج عنه فاذا هو كرسي خشبه يلعب كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسي حتى وضعه بين يدي محمد وهو يقول :  
« اليس هذا كرسي الامام على الذي انتصر به المختار ؟ »

فابتسم محمد وقال : « ولكنه فشل بعدئذ »

قال : « لقد فشل لانه لم يخلص النية في سعيه »

فقال محمد : « وهل تخلص أنت النية اذا نذبتك لهذه المهمة ؟ »

قال وقد بان السرور في وجهه : « كيف لا ، وهذه بغيتي واكون قد  
نصرت الحق واهله ؟ »



عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولكنه ما لبث ان سمعه يقول  
لعرفجة : « ولكن دعوة اهل العراق تحتاج الى المال ، لان بنى أمية انما

غلبوا اخوى بالمال ، وسيفلبون اللائد بالكعبة بالمال ايضا ، فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه في ابتياع الاحزاب والاتباع . فاذا كنت صاحب مال فاني ارجو لك النجاح »

فلما سمع عرفة كلام محمد سقط في يده ، وخاب ما امله ، ولم يدربماذا يجب . ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : « ان هذا الكرسي الذي تزعم انه كرسي ابي ليس سوى كرسي قديم لاحد الزياتين . وقد زعمت اني نذبت المختار ليدعو الي بيعتي ، وهذا وهم باطل لان ذلك الثقفى انما ندب نفسه لتلك المهمة ليشتبع بطنه . فاذا كنت انت جائئا فالتمس بابا آخر غير هذا ! » . قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد في وجهه

فارتبك عرفة وتحقق ضياع امله بعد ان قضى بضعة اعوام في تنميق ذلك الكرسي وصقله ، وكتمان امره عن اهل المدينة . وكان لا يشك في انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجد منه قبولا ، وبذلك يبتز منه المال ليشتبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الي ما قبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج

وكان عرفة من اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة . لا يحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه ما يشتبع نهمه الي المال فلما تبين الغضب في عيني محمد ، عمد الي الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : « لقد عجلت يامولاي بالحكم علي ، وأنا انما ادعوك الي امر عائدته لك ولاهل بيتك ، ولا التمس علي ذلك اجرا ولا شكورا »

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : « انظن امرك يخفي علي ! . لقد قرأت المكر والخديعة في عينيك . ولولا حرمة الجوار لاحقتك بالمختار واحقت بك بنى ثقيف ! » . ثم نادى : « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، واسرع حتى دخل علي محمد ، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور

فلما وقف سعيد بين يدي محمد قال له : « الق هذا الكرسي في النار ، واخرج هذا الثقفى من خيمتي ، وليقم حيثما يشاء واذا رحل فزودوه بما يحتاج اليه »

فلما سمع عرفة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال : « اني راحل الي بلدي وقد اسفت لان الامام محمدا لم يفهم مرادي » . قال ذلك متلطفا خوفا علي حياته . فعجب سعيد للفرق العظيم بين هذا التزلف وبين



مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالأمس - وذلك شأن أهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس ، فإذا لقوا قويا استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم . لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن من نفس كبيرة وإنما هو ضعف رأى وصغر نفس

وكانما رق قلب سعيد لتزلف عرفة ، فعرض عليه النزول في دار الأضياف فاعتذر برغبته في الرجوع ، وكان قنبر قد عاد فناداه وأمره بأعداد العدة للرحيل ، ثم ركب عرفة جملا وقنبر الجمال الآخر وخرجا من الشعب يلتزمان معسكر الحجاج . فلما بعدا عن الحيام أخذ عرفة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستمر ما بدا لعبدته من فضله

أما سعيد فإنه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي واقامه في النار وعاد الى حسن وبلال في خيمته فأخبرهما بخروج عرفة من الحيام ، وهنا عاد حسن الى التفكير في دخول مكة فسأل سعيدا في ذلك فأجاب بقوله : « سألت مولاي الامام في هذا الشأن فأمر بذهابي معكما لأنى تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار وأكثر الطلائع يعرفوننى » . قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه في الذهاب معهم فأذن له

وعاد سعيد اليهما بالأذن فخرجا الى دار الأضياف ليتأهبوا للسفر ، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه ، والشمس قد تكبدت السماء



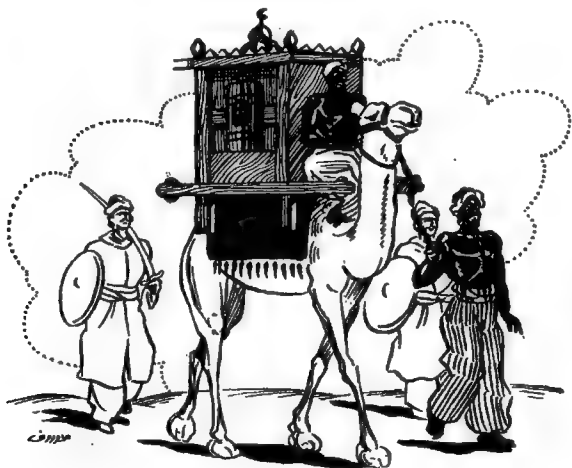
وفيما هم يسرون وحسن يفكر في مهمته وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير وليس معه كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد في الأفق من جهة طريق المدينة ، ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجمعج ، فلما اقترب الركب تفرس حسن في الأعلام والناس ، فأدرك أنهم من أنصار بنى أمية وأنهم قادمون من المدينة لتجدة الحجاج

ولكنه استغرب وصولهم في ذلك اليوم مع انه اقلع قبلهم ، والسبابة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطنا في حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق أنها لأهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها ، وعلم من عظم السرعة التي مشت بها تلك الحملة ما يدل على اضطراب الحجاج اليها . فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم أحد ، وجعل يتفرس في وجوه الناس

ومر الفرسان وحلة الرايات أولا ، ثم تبعهم المشاة ، فأحال الزاد  
والمؤونة

وأخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه  
فارس . ولم ير فى تلك الحملة هودجا غيره . وكان من عادة العرب فى  
الجاهلية وأوائل الإسلام أن يحملوا معهم النساء والأولاد حين يخرجون  
الى القتال . فاستغرب حسن أمر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء  
بأمرة انه لبعض الامراء . وما درى انه يقل حبيته التى سلبت له  
وانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها .  
ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن  
وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج

وظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى راوها اتجهت الى  
جبل ابى قبيس ، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج ، لعلمهم بأن  
الحجاج تخيم هناك



## رمى الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحبه حتى أقبلوا على مكة فراوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، وجاء اليهم بعضهم ، فتقدم سعيد لاستقبالهم وأخبرهم بأنهم ذاهبون في شأن يخص ابن الحنفية ، فاذنوا لهم في الدخول

ونظر حسن الى جبل ابي قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صفرت اشباحهم لبعده المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد : « اننا في الحجون » . فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فأشرف على المسجد الحرام والكعبة في وسطه . وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنه رآها اليوم أكبر مما عهدها ، ورأى على سطحها أشياء غريبة كالفرش والأثاث ، فوقف هنيهة يفكر في الأمر ، ثم قال لسعيد : « انى أرى الكعبة على غير ما أعهدتها فيه ، وكأنها اتسعت ، وكان عليها فرشاً وأثاثاً ، وكان على أرض المسجد خياماً !.. الست ترى ذلك ؟ »

فقال سعيد : « لقد صدق ظنك ، فالكعبة الآن أكبر مما تمهدتها لأنها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه في الزمن الاول قبل ان تبنيها قريش . وأما ما تراه على سطحها فهو ألواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش . والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق ، لأن الحجاج نصب المنجنيق على جبل ابي قبيس وجعل يرمى الكعبة بالحجارة تكاية بابن الزبير » .

فقطع حسن كلامه وقال : « أعوذ بالله ! ايرمون بيت الله بالحجارة ؟ » فقال : « هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالي شيئاً في سبيل مقاصده ، فقد رأيناه يرمى الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق في الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج ، وكان مولاى الامام محمد في جلة الحجاج ، فكتنا نطوف والحجارة تتساقط علينا ، فبعث ابن عمر الى الحجاج يقول له : ( اتق الله واكف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار

الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وإن المنجنيق قد منعهم من الطواف والسعى ) . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادى الحجاج : ( انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمى الحجارة على ابن الزبير المحدث ) . وسمعت أنه أول ما رمى الكعبة بالمنجنيق أرمدت السماء وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم رجاله الأمر وامسكوا أيديهم . فآخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله : ( يا أهل الشام لا تنكروا هذا . فإني ابن تهامة وهذه صواعقها . وهذا الفتح قد حضر فابشروا ) . فلما كان الغد جاءت الصاعقة فاصابت نفرا من أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : ( ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها ) . . . »

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جملة حتى نزلوا أسواق مكة فقال لسعيد : « لقد بلغنا ماأمنا ، فإذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا »

فقال : « بل أوصلكما الى المسجد فاطوف طوفة وأعود » . ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد : « هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة . انظر الى خام الحرم كيف تطاير أجفالا من صوت وقوعه »

وكان حسن قد أحس بالجوع لأنهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا ، فقال لسعيد : « بالله الا أخذتنا الى أحد باعة الأطعمة فناول شيئا » . فضحك سعيد وقال : « ان الأطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت أن ابن الزبير اضطر لما أصاب رجاله من المجاعة أن يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم » . قال ذلك وأدنى فمه من أذن حسن وقال بصوت منخفض : « ولكنني أعلم أن بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنهاخوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم »

فقال حسن : « لابد من ابتياع شيء تأكله ولو كان غاليا » . وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل ، وساروا حتى أتوا المسجد الحرام ، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة في الطواف ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير ف قيل له : « أنه يصلى بجانب الكعبة » . فسأل :

« وأين يذهب بعد الصلاة ؟ » . فقالوا : « انه يذهب الى بيته » . ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب

وبعد أن صلى حسن ركعتين وطلب الى الله أن يرشده الى الصواب ، جلس في بعض اطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاته ، وجعل يفكر في أمر المهمة التي جاء لأجلها ، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج . ثم تذكر ما كان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا . وانتقل به التفكير الى ما كان من أمر عرفة في ذلك الصباح ، وخيل اليه أن الفشل الذي أصابه سيحمله على العودة الى المدينة لأنه لا يستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد ، ولعله يعدل بعد ذلك عن رفضه تزويجها له

ولاحظ أن من يدخلون المسجد قليلون ، ثم ما لبث أن سمع قرعة واحس شيئا هوي بالقرب منه وسمع رفرقة أطيار فالتفت فرأى حجرا كبيرا أصاب الكعبة وسقط على الأرض ، فعلم أنه من أحجار المنجنيق وقد أجفل حمام الحرم من وقعه فتطايروا ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون لتلك الحجارة لأنهم ألفوا سقوطها بينهم

وتذكر أن عبد الله يصلى بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق ، وخاف أن يكون ذلك الحجر قد أصابه ولا سيما أن وقت صلاته طال ، فقلق عليه ، ونهض فسار في فناء المسجد يلتمس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجرا اسماعيل ، ودار نحو بشر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الأخرى بضعة رجال وقوا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله ، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الأرض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له أنه ميت ، واستغرب وقوف الناس هناك دون أن يهتموا له . فاقترب من أحدهم وحياه ، وسأله ما شأن ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : « ألا تعرف من هو ؟ انه أمير المؤمنين »

فأدرك حسن أنه عبد الله بن الزبير وزاد استغرابا وقال : « وما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك »

قال : « انك غريب فيما يسدو ، فلا تعلم أن مولانا أمير المؤمنين أكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا الطير على ظهره في أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده »

فقال حسن : « انه سجد طويلا »

وجاء رجل آخر كان واقفا هناك وقال : « انكم لا تعلمون من تقوى

أمير المؤمنين الا قليلا . أما أنا فقد صبحته طويلا فرأيتَه يقضى ليلته  
على ثلاث : ليلة يقضيها قائما الى الصباح ، وليلة راكبا ، وليلة  
ساجدا . تاهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة أيام يفطرها  
في كل شهر »

فدهش حسن وقال في نفسه : « يجدر بمن كان هكذا ان يكتب له  
النصر »

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد، أدركوا انه صوت المنجنيق  
فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن  
الزبير فنفر الحمام عنه وهو لا يزال ساكنا لا يتحرك ، فذهل حسن  
وقال لصاحبه : « الا تخافون على حياة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « لقد طالما نهبناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو  
لا يبالى »

فقال حسن : « أرجو أن يحرسه الله »

فقال الرجل : « ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، وقد  
وقع هنا في العام الماضي سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف  
فطاف أمير المؤمنين سابحا ! »



## فشل ابن الزبير

تأمل حسن في وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد في محبه لا يدري بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، وراه موجها نفسه اليه كأنما يتوقع أن يسأله عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته . قرأ حسن كل ذلك في عيني الرجل فادرك أنه من أشد انصار ابن الزبير غيرة عليه ، وتبين له من قيافته وهندامه أنه من وجهائهم . وزاد اعتقادا في وجهته لما آتسه من لطفه ودعته ، لأن الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة ، فاذا رايت جفاء وكبرياء من أحد الناس وأنت لا تعرفه فاعلم أنه دنئ الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر ، ولا بما في خزائنه من الاموال الطائلة

وبينما حسن يفكر في ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ، سمعا عبد الله ينادى : « أين ابن صفوان ؟ » . ثم رأى الرجل الذي كان يخاطبه بفت وأسرع الى عبد الله يقول : « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن أنه عبد الله بن صفوان الجمحي ، وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير وتغانيه في نصرته ، وهو أصلح في نحو السنين من عمره ، عريض الجبهة خشن الملامع عريض الفكين ، مما يدل على الثبات والقوة . ثم ألتفت حسن الى ابن الزبير وتهيا للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة في أسفل ذقنه خفيفة في عارضيه . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة . وتأمل في وجهه فرأى الهرم قد بدا في ملاحيه لقرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط به من الضيق ، وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، لانه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده ، ولكنه رآه اتجه الى موضع آخر دون أن يلتفت الى أحد ، وأعجب بمشيته الثابتة التي تدل على جلال ووقار ، ورأى ابن صفوان يسير في أثره مراعي اياه بعينه وكل جوارحه ، وفي مشيته عرج ، فعلم انهما سائران الى البيت ، فافتقى اثرهما وهو يفكر في مخاطبة عبد الله بالامر الذي جاء من أجله لكنه تهيّب

واستحيى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق ، ورأى أن يتحين لذلك فرصة أخرى

وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن في أثرهما . وكان الناس يقفون في الطريق لثحية عبد الله ، حتى أشرقوا على دار واسعة قد قصت بالواقفين من الناس ، وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت أبصار الناس إليه ووسعوا له ، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشراف على مقعد في صدر القاعة فجلس عليه الأربعة ، وجلس إلى يمينه شاب كبير الشبه به ، فأدرك حسن أنه أحد أولاده ، ثم جاء شابان آخران فجلسا عن يساره . وجلس بقية القوم بين يديه لا يغوه أحدهم بكلمة لفرط ما حاط بهم من الامر العظيم . ولشوا هنية كان على رؤوسهم الطير . أما حسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجموع ، وهم بالخروج فرأى ابن صفوان يشير إليه من بعض جوانب القاعة داعيا إياه إلى الدخول ، فمشى إليه وجلس إلى جانبه وقال له : « يسرني أني عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك » . فقال ابن صفوان : « فهلا انتسبت لأعرفك أنا أيضا »

قال : « سأطلعك على امرى فيما بعد ، فلا غنى لى عن معونتك »

وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما أدرك أحدهم السعال فأمسك عنه . فالتفت حسن إلى ابن صفوان وقال له : « أى أبناء أمير المؤمنين هؤلاء ؟ »

قال : « أن الذى تراه إلى يمينه هو أخوه عروة بن الزبير . أما الجالسان إلى يساره فولداه حزة وجبيب ، وترى على مقربة منهما شابا مطرقا هو الزبير ولده الثالث ، وأن هذا الشاب الجدبر بأن يكون ابن أمير المؤمنين » . ثم تهيأ للنهوض قائلا : « لا بد لى من مفارقتك الآن لأمر يدعو إلى ذلك ، فأننا فى مجلس ذى بال اليوم ، وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل » . ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار إليه عبد الله أن يقعد

وبعد قليل ، وقف أحد الجالسين وخاطب عبد الله قائلا : « يا أمير المؤمنين ، أنا بحمد الله نؤمن بصدق دعوتك وأنت على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لانجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك مانز يدعى أن نموت . وأنما هى إحدى خصلتين ، اما أن تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا ، واما أن تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وأنهم صائرون إلى الفشل . ثم سمع ابن الزبير يقول : « ألم تباعوننى على أنفسكم وأموالكم ؟ »



فقال الرجل : « بلى ولكننا نرجو أن تقبلنا بيعتنا ، إذ لا نرى فائدة من البقاء عليها »

فقال عبد الله : « اتنى عاهدت الله على ألا يباعني أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان »

فالتفت حسن إلى ابن صفوان فرآه قد وقف بفتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال : « أما أنا فاني أقاتل معك حتى أموت ولا أسلمك في مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس ، وانقسموا شيئا واحزابا ، وبدا أن أكثرهم لا يرون رأى ابن صفوان . فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وقال : « بورك فيك يا ابن صفوان ، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته ، ان أمير المؤمنين كما تعلمون أولى الناس بهذا الأمر ، وذلك لأن عثمان استخلفه على داره يوم مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم . وانكم لتعلمون انه نعم الخليفة لا تغره بهارج الدنيا . ألا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الأمر بالمال والرجال ؟ في حين يستعين أمير المؤمنين بالصوم والصلاة . تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله أجمعين . ألم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت أبيه مروان ؟ . أنتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة ، وكثرة ما كان يظهره من التدين والتقوى سموه حامي المسجد . فلما مات أبوه وبشر بالخلافة كان المصحف في يده فاطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك) . فأين هذا من سجود أمير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لا يخفى على أحد . هذا وان أمير المؤمنين بيعة في أعناقكم ، وأنتم جماعة قرشي أهل الحماسة والنخوة ، فكيف تغادرون أمير المؤمنين في مثل هذه الحال ؟ . أما لكم أسوة بابن صفوان ؟ »

وكان حسن يتكلم والفرق يتصعب من جبينه وقد امتنع لونه وأيقن أن القوم قد تكصوا على أعقابهم . ولكنه لم يستطع غير الانتصار لما رآه حقا . وكانت الأبصار شاخصة إليه لأنه غريب لم يعرفه أحدهم . وكان عبد الله ابن الزبير ينظر إليه ويعجب بغيرته . فلما فرغ من الكلام علت الضوضاء فوق رجل آخر وقال : « لقد نطقت بالصواب ، وان البيعة في أعناقنا لا ننكرها ، وما نحن خارجون من بين يديه إلا بأمره . ولكننا نرى القتال أصبح عبثا ، ومعنا من الرجال عشرة آلاف ، وقد جعنا جميعا وعطشنا وقتلنا مؤوتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لا يبالي حرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الأمان فمن خرج إليها سلم . فما بالناس لا نختار

الطريق الاسلام » . ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال :  
« اكتب الى عبد الملك بن مروان لترى رايه فلعلكما تنتهيان الى امر فيه  
صلاح الحال »

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير وجهه  
وقال : « كيف اكتب اليه ؟ . أبدا بنفسى أو أبدا به . اكتب ( من عبد  
الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ ) . فوالله لا يقبل هذا أبدا . أم  
اكتب ( لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ ) . فوالله  
لأن تقع الخضراء على الغبراء احب الى من ذلك » . قال ذلك وعاد الى  
اطرافه ، وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا فاذا بعروة بن الزبير اخى  
عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له : « يا أمير  
المؤمنين قد جعل الله لك أسوة »

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب في جبينه : « من هو ؟ »

قال عروة : « حسن بن علي ، فانه خلق نفسه وباع معاوية » . ولم  
يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بهأخى القاه عن المقعد .  
فأجفل الناس من سقوط عروة وأعظموا غضب عبد الله فتهيبوا ، ثم  
سمعوه يقول له : « يا عروة . والله لو قبلت مايقولون ماعشت الا قليلا  
ولا أخذت الا الدنية . وان ضربة بسيف في مزخجر من لطمة في ذل » .  
ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثر  
وقال لهم : « أنتم مخيمون فافعلوا ماتشاءون ، وان رجلا يجر الى الحرب  
بحبل لايحارب ، وان الله وليي ونعم النصير » . قال ذلك وأراد  
الانصراف ، فوقف ولده حمزة وحبيب وقالوا : « هل نحن مخيمران أيضا ؟ »

فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه : « حتى اولاده تخلوا عنه » .  
والتفت الى عبد الله فراه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما  
من الدمع ثم قال : « نعم وأنتما أيضا في حل ، امضيا واطلبا الحياة ولا  
تموتا » . ثم اختنق صوته فسكت ريشما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه  
الثالث الزبير وقال له : « وانت يا بني اطلب لنفسك أمانا مع اخويك  
فوالله انى لأحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف :  
« حاش لله أن أتخلي عنك فما كنت لأرغب بنفسى عنك »



انصرف عبد الله من باب يؤدي الى دار النساء ، وظل حسن واقفا  
يسمع مايدور بين الحاضرين . فعلم انهم اجعوا على الخروج الى الحجاج

يلتمسون أمانه . وأدرك أن أشد ما أبعدهم عن عبد الله أنه يقترب عليهم ،  
في حين يسخو عبد الملك على بنى أمية ويبدل الأموال لتأثيره . فسأله  
ذلك لاعتقاده أن هؤلاء إنما أرادوا الخروج رغبة في العطاء ، وإن صبر  
ابن الزبير لا يفيد شيئا ولكن الإنسان لا يعيش في هذه الدنيا عمري  
وإنما هي مودة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والروءة

وأحسن حسن يد أمسكته ، فالتفت فإذا بابن صفوان يدعو له  
فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : « أن  
أمير المؤمنين يدعوك وقد أحب أن يراك » . قال ذلك وتركه هناك  
وخرج

فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لاداء المهمة التي جاء لأجلها ،  
وإن كان الكلام فيها لا يجدى نفعا

ثم عاد إليه ابن صفوان وأشار إليه أن يتبعه ، ومضى به إلى حجرة  
رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما ،  
وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته ، وآونة يشمر عن ساعده  
أو يرسل كفه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن في تلك الحجرة  
فإذا هي لا شيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما أقبل عليه تقدم  
حسن إليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه إلى الجلوس على المقعد ، فلم  
ير الجلوس وابن الزبير واقف ، فالتفت عليه هذا بالجلوس وقال : « دعني  
واقفا وسأجلس بعد هنيهة »

فجلس حسن وبقي ابن صفوان واقفا مكانه يراعى عبد الله ويراقب  
حركاته ولا يتكلم

ثم التفت عبد الله إلى حسن وقال : « من أين قدمت ؟ »

قال : « من الشام »

ففت عبد الله عند سماع اسم الشام لأن فيها أعداءه ومناظره ،  
والتفت إلى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لا يقل  
عنه استغرابا ، فقال عبد الله : « وما الذي جاء بك إلينا ونحن في هذه  
الحال . لعلك جاسوس ؟ »

قال : « معاذ الله يا مولاي . كيف أكون جاسوسا وأفعل ما فعلته اليوم ؟ »

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس .  
ثم قال عبد الله : « لا غرابة فيما ظهر منك أن كنت جاسوسا ، لأن  
الجواسيس يتلونون تلون الخرباء . على أني لا أبالي مهما يكن من أمرك  
فما أنا ممن يستعينون بالجواسيس وأنا لا أخافهم وإنما أستمع بالحق  
والعدل »

فوقف حسن وهو يقول : « العفو يا مولاي ، أني أجل نفسي عن

الجانوسية في هذا السبيل، وانما أنا رسول اليك في مهمة لأرى مسوغا للكلام فيها الآن »

قال : « وماذا تعنى ؟ وكيف لامسوغ لها ؟ . قل . . لا بأس مما تراه من الاحوال . من أرسلك الينا من الشام ؟ . لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟ »

قال : « لا يمولاي ، بل أنا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية »  
قال : « وهو أيضا أموى ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن امرؤ منه بالكيمياء والشعر وما الى ذلك »

فقال حسن : « ما كنت احسب الحقيقة تخفى على مولاي أمير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال : « كيف يكون هذا وكلاهما أموى وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال : « أما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل لتحققت أن خالدًا أرغب في بيعه أمير المؤمنين من آل العوام أنفسهم »

فقال عبد الله وهو يتسم ابتسامة الاستخفاف : « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي أمر بحصار هذا البيت وقتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن : « صدقت يامولاي انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لا يخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمر لا يزال محاصرا البيت الحرام وأنتم فيه ، وهو لا يعلم بموت خليفته يزيد ، وقيل انكم عرفتم بموته قبله ، وإذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه في شأن الخلافة »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « أظنك تعنى انه عرض على البيعة بعد موت يزيد ؟ »

قال حسن : « نعم يامولاي ذلك ما أعنيه ، ولو أنك أجبتة الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبدا لله بفتة كأنه تذكرا مراما يؤله ذكره وقال : « ولكنه أراد أن اذهب معه الى الشام ، وأبى إلا أن تكون البيعة هناك »

قال : « وما منع مولاي أن يذهب الى الشام ، أنك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك أحد »

فأسرع عبدا لله في قطع الكلام لانه لا يجب أن يتذكر الخطأ الذي ارتكبه في ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بنى أمية لشدة

اضطراب حال بنى أمية في ذلك الحين . وقال لحسن : « ثم ماذا ؟ » .  
أوصلنا الى حديث خالد »

قال : « لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثاني) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبنى أمية حقاً في الخلافة كما صرح جهاراً في خطابه بعد أن تولاها بأربعين يوماً ، فانه امر فنودي : ( الصلاة جامعة ) . فلما اجتمع الناس وقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ( أما بعد ، فاني ضعفت عن امركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده - فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاخترأوا . ماكنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بها حياً ) . ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الأحوال حتى آل الأمر الى مبايعة مروان بن الحكم لانه أكبر بنى أمية سناً . وكلنا نعلم شأن هذا الرجل في امر عثمان وكيف انه قد أوقد جلدوة تلك الفتنة التي لم نتخلص من عواقبها الى اليوم . وهكذا تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذي كان أحق بها منه ، بحكم نظام الوراثة الذي وضعه جده معاوية . على ان بنى سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان حدثته نفسه ان يخرجها من نسل معاوية الى نسله ، فتزوج أم خالد حتى تصفر نفس خالد عن طلب الخلافة . واتفق بعد بضعة أشهر ان مروان ناظر خالداً في شأن وشمه وأهان أمه ، فخرج خالد الى أمه وأطلعها على ماكان فقالت له : ( دعه فانه لايقولها بعد اليوم ) . وفي المساء جاءها مروان وسألها : ( هل أخبرك خالد بما جرى بيننا ) . فقالت : ( يا أمير المؤمنين ، خالد أشد تعظيماً لك من أن يذكر لي خبراً جرى بينك وبينه ) . فلما أمسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي وجواربها حتى مات ولم يتم السنة في خلافته ، والناس يظنونونه مات خيف أنفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالأمر ، ولكنه خشي اذا انتقم لآبيه ان يفتضح أمره ويقال ان امرأة قتلته . فظل حاقداً على خالد ، وظل خالد ينظر اليه نظره الى محتلس . ولهذا قلت لمولاي أمير المؤمنين ان خالداً أرغب من آل العوام في خلافتك »



لما فرغ حسن من كلامه ، أطرق عبد الله طويلاً ، وشعر حسن وابن صفوان بما يجول في خاطره في أثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع رأسه بفتة ونظر الى حسن وقال : « لقد فات الوقت ، ما يقدره الله

فهو كائن . على انى ما اظن خالدا يرضى بخروج هذا الامر من بنى  
أعمامه الى رجل حاربه أبوه عليه . ولا أرى ثمة مسوغا لذلك » . ثم  
استدرك فقال : « ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذى جئت لأجله ؟ »  
فقال حسن : « انه أمر لا يستحسن الخوض فيه الآن ! »

قال : « بل قل »

قال : « لقد بعثنى خالد الى أمير المؤمنين خطيبا »

قال : « من ؟ ولن ؟ »

قال : « مولائى رملة أخت أمير المؤمنين ، الى مولائى خالد بن يزيد .  
وقد كتب بذلك كتابا فقدته فى المدينة لسبب يطول شرحه »

فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بنى أمية .  
على انه لما تذكر ماسمعه من حسن مال الى تصديق الامر ، وان بقى  
مرتبا فى حقيقه مهمته ، فقال له : « اذا كان خالد كما وصفت فانى  
أرحب بمصاهرته ، وكنت أود الاطلاع على كتابه . وليس هناك ما يدعو  
الى العجلة والحال على ماترى . فلنصبر حتى يقضى الله بيننا وبين هذا  
الطائفة الذى يرمى بمنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقابا »

فقال حسن : « ذلك مادعانى الى التردد فى تبليغ الرسالة ، ولكن  
يكفينى ماعلمته من رضاكم ، رغم انى لا أحل كتاب خالد . وسأكتب  
آليه لأطمئنه بالقبول ولكى يرسل كتابا آخر فى هذا الشأن . ثم انى  
أعرض على مولائى أن أكون فى خدمته لعلى أستطيع أمرا يكون فيه  
مصلحة له . فهل ترى أن أذهب الى الحاجاج فأكلمه فى شأن الهدنة أو  
الصلح فربما كان لكلامى وقع عنده لانى أمد من انصار بنى أمية فلا  
يرتاب فى أخلاصى ؟ »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « لا . لا . لا . دعهم وما يفعلون ، انى  
لا أريد وساطة لدى عبد قفيف » . قال ذلك ووقف ، فوقف حسن  
وحياه ثم انصرف من غير الباب الذى دخل منه ، وكان الليل قد أرخى  
نقابه فتبعه ابن صفوان وناداه قائلا : « رويدك يا أبا العرب »

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فامسك هذا بيده  
وأدنى فمه من أذنه وقال همسا : « تعال معى »

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة  
خالية وقال له : « سمعتك تعرض على أمير المؤمنين التوسط لدى  
الحجاج فى المهادنة أو نجوها ، وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك انفة منه .  
ولكننى أعلم ما نحن فيه من الضنك ، وأن المهادنة تفيدنا فى لم شعشنا  
لأننا قد تشبثنا . لا أقول ذلك خوفا من الموت فاننا لأرغبة لنا فى هذه  
الحياة ، وانما نحن نطلب الآخرة وبنو أمية يريدون هذه الحياة الفانية

ويسفكون الدماء من أجلها . فاذا رأيت أن تقوم بهذه المهمة فافعل »  
قال : « سأسعى في ذلك جهدي ، ولعلني أوفق الى ما فيه الخير أن شاء الله »

فقال ابن صفوان : « انزل الآن في دار الاضياف اذا شئت ، او انزل في داري »

فقال حسن : « بل انزل في دار الاضياف ويشما ادبر الامر »  
قال : « ولكن الليل ادركنا ، فامكث عندنا الليلة ، فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد »

فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد فقال :  
« ان خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف أن يستبطئني فيظن أن قد مسني سوء »

فقال ابن صفوان : « انه اذا استبطاك ، فسينام حيث هو ، وفي الغد نراه »

فاطاعه حسن وبات عنده . وقضى معظم الليل يفكر في أمر ابن الزبير وفي مسيره الى الحجاج ، ثم أدركه النوم فرأى في منامه انه لقي الحجاج وجادله في أمر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما غليظا ، فافاق في الصباح وهو منقبض النفس

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه أن يسير معه الى بيت الاضياف فقال حسن : « أرى أن ابحت عن الخادم والجمل »  
فقال لاخوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها بجانب بيت أمير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء »



سار ابن صفوان مع حسن حتى أدخله دار الاضياف ، واتجه هو الى بيت عبد الله . ورأى حسن في الدار أناسا لم يعرف أحدا منهم ، فحمل يتفرس في الوجوه لعله يرى خادمه بينهم ، فلما لم يجده هم بالخروج الى مواقف الدواب عسى أن يجده مع جله هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا والبقعة بادية في وجهه وعيناه شائعتان كأنه يقتش عن ضائع ، وما كاد بلال يراه حتى سارع اليه وقال : « أين كنت يامولاي . أن سيدى أبا سليمان يبحث عنك »

فبغت حسن لذكر أبي سليمان لعلمه انه فارقه في المدينة وقد عهد اليه في تنسم أخبار سمية ، فقلق لمجيئه ونهض وقال : « أين هو ؟ »  
قال : « تركته في المسجد وجئت للبحث عنك ، فهل أدعوه اليك ؟ »

قال : « بل اذهب انا اليه » . وهم بالخروج فرأى اهل الدار في هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم ، فوقف مع الواقفين وسأل أحدهم عن القادم ، فقال له : « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الانضياف »

فعلم انها اسماء بنت ابي بكر ، ام عبد الله بن الزبير ، وكان يحسبها قد ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة . فهي يومئذ قد بلغت المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين . فأحب أن يراها فجعل يتناول حتى أقبلت فاذا هي قد احدثت بظهورها وعميت ، وجاءت تتوكأ على مكاز ، وبجانبيها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق . ورأى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف ثوبها تبركا بها ، حتى اذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : « خافوا الله ولا يتخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا في الاسواق فان الله كفيل بطعام الغد »

فعجب حسن لاهتمام ام الخليفة بامر الانضياف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبد الله فظننها جاءت تحت الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن أهلها . ولا شك في انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلها بما يتهدده من الخطر العظيم

وبعد ان مر موكب ذات النطاقين ، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى المسجد ، وسارع حسن الى لقاء ابي سليمان . فحياه وقال : « ما ورائك يا عمه ؟ »

قال : « ان ما ورائي ذو بال يا بني »

فبغت حسن وقال : « وما هو ؟ . قل يا عمه . هل أصاب سمية سوء ؟ »

قال : « لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة »

قال حسن : « جاءت الى هنا ؟ . واين هي ؟ »

قال : « اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد واقتص عليك الخبر » . وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق ، فانتحيا ركنها فيه . وحسن في قلق شديد فلما جلسا قال : « قل يا عمه اين سمية الآن فقد نفد صبري . وكيف جاءت مكة ؟ »

قال : « انها جاءت مكة ، ولكنها الآن خارجها »

فانتبه حسن وقال : « لعلها عند الحجاج ؟ »

قال : « نعم يا بني انها عنده »

فصاح وهو لا يعبى ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير ابي سليمان : « وكيف كان ذلك ؟ أفصح بالله »



قال : « أخذها زوجة له ، لأن أباه عرفة زفها اليه يوم سفره ، وأرسلها مع الحملة التي بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة »

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بدهول ، وتذكر انه شاهد تلك الحملة بالأمس مارة قرب مكة ومعهما هودج يحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهز رأسه وقال : « أعوذ بالله !. أأرى سمية تساق الى الحجاج وأبقى واقفا انظر الى هودجها ولا أنقذها ؟ . ولكنني لم أعرفها ولا بد من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد أييها الخائن الفاجر قبحه الله . ثم التفت الى أبي سليمان وقال : « وهل سيقت الى الحجاج برضاها ؟ »

فقال أبو سليمان : « ما أظنها الا سيقت مرغمة . فقد علمت ان أباه احتال في اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك »

قال حسن : « اذن هي الآن امامنا في هذه الخيام قرب جبل أبي قبيس . لا بد لي من الذهاب اليها ، فاما ان أنقذها أو أموت في سبيلها » فقال أبو سليمان : « أعلم يا بني اني رهين اشارتك وقد قلت لك اني وقفت حياتي على خدمتك ، فاذا رأيت ان تبعثني في شأنها فافعل » فصمتا حسن مفكرا ثم قال : « اننى احتاج اليك باعماء في ابلاغ رسالة الى مكان بعيد »

قال : « انى على استعداد للذهاب الى السند في خدمتك »

قال : « لا . . بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟ »

قال : « افعل ان شاء الله ، اين الرسالة ؟ »

قال : « اكتبها اليه الآن وهى خاصة بالمهمة التي جئت لأجلها »

قال : « اكتب وأنا بين يديك »

فاخرج حسن من جيبه منديلا من القباطى ( نسيج مصرى ) وكان قد أعد دواة وقلما في جيبه لمثل هذه الغاية . وجلس على حجر بجانب إحدى عضادات المسجد فكتب أسطرا قال فيها :

« الى خالد بن يزيد من حسن . أما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصه عليك عند اللقاء . على انى واصلت السفر الى مكة ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصار وضيع ماحوله ، فأجاب بالرضاء . ولكنه رأى ان تبعث اليه بكتاب آخر في هذا الشأن ، فاذا شئت فافعل ، وأبعث الكتاب مع حامل هذا اليك ، وأنا باق هنا لأمر يهمنى كثيرا ،

والسلام عليكم ورحمة الله «  
ثم سلم الكتاب الى ابي سليمان وقال له : « امض على عجل ، واحذر  
ان يعترضك الحراس حول مكة »  
قال : « لقد دخلت ولم ينالوا منى ماربا ، وساترك بلالا في خدمتك  
لعلك تحتاج اليه في شيء »

فأتيت عليه وودعه ، وعاد الى ماكان فيه من الاهتمام بأمر سمية ،  
فرأى أن يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها .  
وكان كلما فكر في الامر ، وتصور انها زقت الى الحجاج ، اضطرب وثار  
أشجانه واشتد قلقه ، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب  
الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة في  
شأن وقف الحرب ، ولكنه لم يربدا من استشارة ابن صفوان لثلايفضب  
ابن الزبير . فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده ،  
فالتمس في دار ابن الزبير ، فلم يجد أحدا في القاعة التي كان الاجتماع  
فيها بالأمس ، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها  
الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان في خدمة ليلي الاخيلية ، فتوسم  
فيه الخبر وناداه وقال له : « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال : « جئت مع مولاتي »

قال : « ليلي هنا الآن ؟ وأين هي ؟ »

قال : « هي عند أمير المؤمنين في بيته ، وأظنها في حجرة أمه ذات  
النطاقين »

قال : « ومن أين أتيتم ؟ »

قال : « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بان ليلي لابد أن تكون قد رأت  
سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقائه ليلي وأخذ  
يتمشى خارج البيت ، وكلما سمع حركة أو صوتا ظنها خارجة ، حتى  
مل الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : « هل أقمت بمعسكر الحجاج  
طويلا ؟ »

قال : « أقمتا يوما وليلة ، ثم رايت مولاتي أسرعت الى مكة ،  
وأرسل الحجاج معنا من أوصلنا اليها لثلايعترضنا الحراس المحيطون بها »  
فادرك حسن انها جاءت بأشارة الحجاج فزادت رغبته في مقابلتها  
واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجا  
من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظرتهما أقبل عليه ابن صفوان وقال :  
« أحد الله على أتى رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك مخافة أن  
تكون قد مضيت في الامر الذي نذبت نفسك له بالأمس »

قال حسن : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى مقابلة الحجاج »

قال : « وما الذى حدث ؟ »

قال : « لقد جاءت ليلى الاخيلية من عنده ، لئلا ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين انه لا يرى صلحا ولا هدة ، لان الحجاج لا يريد منه غير الاستسلام ، وهذا امر مستحيل عندنا والموت أهون منه »

فقال حسن : « وأين هى ليلى الآن ؟ »

قال : « فى دار النساء وقد نزلت عند مولاتى ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها أيضا »

قال : « هل من سبيل الى مقابلتها ؟ »

قال : « ذلك يسير . هل اخبرها بانك تطلب مقابلتها ؟ »

قال : « افعل »



## سمية في بيت الحجاج .

دخل ابن صفوان ، ثم عاد وأشار الى حسن أن يتبعه ، فدخل ورائه غرفة رأى فيها ليلى وحدها في انتظاره ، فلما أقبل عليها قالت : « اذن أنت حسن حقا ؟ . كيف اذن اكدوا لى انك قتلت ؟ »

فابتسم وقال : « كدت أقتل ، ولكننى حى الآن فأخبرينى هل كنت فى معسكر الحجاج ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل رأيت سمية هناك ؟ »

قالت : « نعم رأيته »

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسألها قائلا : « هل رأيته » حقيقة ؟ »

قالت : « رأيته ورائتى ، وكلمتها وكلمتنى ! »

قال : « بالله كيف حالها ؟ وما الذى جرى لها ؟ »

قالت : « اراك غائبا عن الدنيا ؟ ألم تعلم أنها حملت الى الحجاج لتزف اليه ؟ »

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد : « نعم علمت ، ولكن هل زفت اليه حقا ؟ »

قالت : « زفت اليه منذ يومين ، وهى الآن فى داره مع نسائه »

قال : « فى داره مع نسائه ؟ . اذن صارت زوجة له ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل ذكرتمانى فى حديثكما ؟ »

قالت : « ذكرناك وبكىنا عليك وهى التى أخبرتنى بموتك »

قال : « وهل هى آسفة على موتى ؟ »

قالت : « أما قلبها فمعك ، فهى لا تفتر عن ذكرك لحظة مع ياسها من لقائك ، لانهما لها العيش مع أحد غيرك »

فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : « اذا كان الحجاج عقد

قرانه بها كما تقولين ، ويشت من قلتي فكيف القها ؟  
قالت : « الحب كله رجاء يا حسن ، بل الحب يضع الرجاء في موضع  
الناس »

قال : « اباقية هي على حبي ؟ »  
قالت : « نعم وهي مع ذلك لا ترجو لقاءك فكيف اذا علمت بانك حي ؟  
فهل انت تحبها مثل حبها لك ؟ »

قال : « كيف لا ؟ » . وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على  
الذهاب اليها وأحسن انه مقصر في حق سمية ، وهان عليه ان يضحي  
بنفسه لانقاذها . وكلما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه  
وكادت الغيرة تحرقه ، فاطرق برهة ثم قال : « وهل زفت الى الحجاج  
حقيقة ؟ »

قالت : « قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه »  
قال : « اعد بالله ! . ولكن قلبي لا يصدق انها في بيته مثل احدى  
نسائه . وهل يحبها هو ؟ »

قالت : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لانها  
لاتريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا »  
فاضطرب وجد الدم في عروقه وقال : « انى اطير اليها واخطفها من  
وسط بيته ومن بين مخالبه ! »

فقطعت ليلي كلامه وقالت : « تبصر يا حسن ، ان دون الوصول اليها  
عقبات لا استطاع تجاوزها الا بالحكمة »

قال : « وای حكمة ؟ كيف يمسه الحجاج وانا حي ؟ . ليس في الحب  
حكمة . الحب شيء والحكمة شيء آخر . ان الرجل اذا احب ، خضع  
لقوانين الحب وحدها ، وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء »

فلما رأت ليلي شدة هياجه اشفت على حياته مما يعترض السبيل  
الى سمية من الاخطار ، ولا سيما انها عند الحجاج الذي اشتهر بالظلم  
والجبروت . فاذا وقع حسن بين يديه فلن يعفيه من القتل ، فقالت له :  
« انى معك في ان الحب لاسياسة فيه ولا حكمة ، ولكن المحب ينبغي ان  
يحرص على حياته لاجل حبيبه ، فيجب ان تحرص على حياتك لاجل  
سمية . تبصر في الامر يا بنى ، وسأكون في عونك حتى تبلغ ماتريده ،  
فانى اعرف قيمة الحب ويسوءنى ان يفرق أحد بين حبيبين ، بل انى  
لانتقم على من يسعى في التفريق بينهما ! » . قالت ذلك وتهدت واشرق  
الدمع في عينيها

فادرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لانها احبت توبة

ومنعوها منه فقال : « بورك فيك ياليلي فلقد خفت من شدة بلوى ،  
فأشيري على بما قرين »

فقالت : « انى وفدت على الحجاج في معسكره ، على عادتي في الوفود  
على الامراء ، فرحب بى وانزلنى في دار امز نسائه عليه ، وهى هند  
بنت النعمان . ولعلك تعلم انها جيلة ذات حسب ونسب ولكنها  
لا تحبه ولا تحترمه ، فلقيت سمية عندها ، وتحدثت معها في شأنك  
فلما انبأتنى بفقدك شق ذلك على ، واعتزمت ان استطلع خبرك  
في مكة ، فعرضت على الحجاج ان اتى اليها واحاول اقناع ابن الزبير  
بالاستسلام ، مع انى أعلم ان استسلامه مستحيل . فلما جئت مكة  
علمت انك جئتها بالامس ، وخطبت رملة لخالد فقبل ابن الزبير ولكنه  
استمهلك ريثما تنقضى الحرب . فكان سرورى مزدوجا بسلامتك  
ونجاحك في المهمة التى جئت لاجلها . وارى ان اعود الآن الى معسكر  
الحجاج واجعلك راوتى ، وانت تعلم ان لكل شاعر عربى راوية يرافقه  
فيحفظ اشعاره ويرويها عنه . والحجاج لا يعرفك ، فلن يخطر بباله  
انك مناظره على سمية ، ومتى وصلنا الى المعسكر واقمنا به ، تفكرنا  
في امر سمية ، واسأل الله التوفيق »

فاستحسن حسن رأيها وقال : « اذن هلم بنا الآن ، فانى لا اصبر  
على هذه الحال »

قالت : « اسبقنى الى المسجد ريثما اودع ذات النطاقين والحق بك »  
قال : « لقد أنساني حديث سمية استطلاع مادار بينك وبين ابن  
الزبير في امر الصلح أو الاستسلام »

قالت : « كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت أمه أسماء  
ذات النطاقين أكثر منه تشددا ، وانى لأعجب لهذه العجوز وصبرها  
على المكاره فقد رأيتها مع بأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على  
الثبات في دموته . على انى وقد رأيت معسكره ومعسكر الحجاج ،  
لا أشك في ان ابن الزبير مقلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين في العدد  
والعدة وكل شيء »

فابتدروا حسن قائلا : « لقد رأيت بعينى اصحاب ابن الزبير واخوته  
واهلكه يتخلون عنه ، وقد نفذت قواته واقواته فالامر خارج من يديه  
لا محالة »

قالت : « القوة هى الغالبة يا حسن ، والخلافة صائرة الى بنى أمية .  
لان عندهم الرجال والاموال ، وقد ساعدتهم الاقدار من كل ناحية »  
فقطع حسن كلامها وقال : « ليس يهمنى الآن الا امر سمية ،  
وسأسبقك الى المسجد فأنهى للسفر » . قال ذلك وتركها وأسرع الى

المسجد ، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا . فلما رآه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد ، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج واسر اليه الغرض من ذلك

فقال بلال : « الا استطيع أن اكون في خدمتك يا مولاي ؟ »

قال : « بورك فيك . ولكنني ذاهب في مهمة لا تخلو من الخطر ، وإذا انكشف أمرى فيها فلن ينفعني الرجل والرجلان ، على اني أرجو التوفيق . فابق أنت هنا بضعة أيام ، فاذا لم أعد فاطلبني في معسكر هذا الطافية »

تنكر حسن في ثياب غير ثيابه ، وحل جرابا فيه ادراج من الرق كتب فيها بعض القصائد . ثم مكث ينتظر ليلي حتى عادت وقد تلثمت وركبت جلا يقوده خادم ، فركب حسن جله ، وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان واقفا بالباب فرأى ليلي وعرفها ، وتفرس في حسن فعرفه كذلك رغم تنكره ، فحياهما وقال : « الى أين ؟ » . فقال حسن : « لقد عزمت على أن أبدا السعى في سبيل التوفيق »

فهمز ابن صفوان رأسه وتنهد وقال : « أسأل الله لكما السلامة » وما لبث حسن وليلي أن ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ، فعرفوا ليلي ولم يعترضوهما ، فواصل السير حتى أقبلأ على معسكر الحجاج نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، فعظم أمر الحجاج في عينيه وقال : « يا ليلي ان الامر صائر الى هذا العاني لا محالة . وأنى لينفطر قلبي كلما تصورت مصير عبد الله بن الزبير . اتظنينه مغرورا بنفسه ؟ »

قالت : « كلا ، ولكنه يعتقد انه على الحق »

قال : « ما الذي اراه على جبل أبي قبيس ؟ »

قالت : « ألم تر وقوع الاحجار على النكبة ؟ ان الحجاج نصب منجنقاته على الجبل وهو يرمى الحجارة منها على النكبة . ومع المنجنقات فصيلة من الجند »

قال : « واين خيام النساء التي تقيم بها سمية ؟ »

فقالت : « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج ، وهى الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام ، وسادخل أنا ثم أخرج وأسير بك الى مكان امره ، وأذهب الى هند بنت النعمان فأرى سمية هناك وأقص عليها قصتك ، واتفق معها على موعد لتلقيان فيه خارج المعسكر . وما

زالا سائرين حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا امامها اناس بالحراب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم - وكان بنو أمية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم اربابا للناس - وقبل وصولهما الى الباب أناخا الجميلين ، ونزلا قمشت ليلي والناس يوسعون لها وحسن يسير في أثرها حتى وقفت بباب الخيمة ، فدخل أحد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبمظم أعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فاذا هو جالس في صدرها على سجادة نيمية وقد تربيع ووضع السيف على فخذه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه . وراه لما دخلت ليلي رجب بها بصوت أرق مما كان يتوقعه ، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيرا . وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلي فاذا هو أخفش العينين ، مقطب الوجه ، ولم يجد في وجهه قبولا للابتسام أو الضحك



لاخت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج، فرأى رجلا لم يكذب تبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته فقد كان عرفة أبا سمية ، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول . وأدرك حسن أن عرفة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه وحدثته نفسه بان يفتك به انتقاما منه . ولكنه ما لبث ان عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الأخطار فاشاح بوجهه الى خارج المعسكر لئلا يلاحظ أحد عليه شيئا . كما خشي أن يراه عرفة فيعرفه ويدبر له مكيده أخرى ، فمشى متظاهرا بأنه يسير على غير هدى حتى بعد عن خيمة الحجاج ثم سمع ليلي تناديه فسار اليها وتبعها والجواب معلق في كتفه بوصفه راويتها . وبعد أن قطعا مسافة في المعسكر قالت : « أنظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، فاقم بها ريثما آتيك أو أبعث اليك »

قال : « وسمية ؟ . . . الا يستطيع رؤيتها الآن ؟ خذيني معك بوصفي خادما لك أو تابعا أو أي شيء لأرى سمية »

فرق له قلب ليلي وقالت له : « سر في أثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء وأجعل كأنك تحمل لى هذا الجراب حتى تضعه في الخيمة



التي نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبر لك خيلة لمشاهدتها  
ومخاطبتها »

فرقص قلبه فرحا ونسى كل خطر في سبيل شوقه لرؤية حبيبته .  
وبعد هنيهة وصلا إلى خباء له عدة أبواب وحوله خيام أخرى صغيرة ،  
فعلم انه خباء أهل الحجاج ، وقالت ليلي : « امكث تحت هذه  
النخلة ومتى دعوتك فادخل » . وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ،  
فجلس هناك وقلبه يدق وعينه شائعتان

ودخلت ليلي الخباء وهو أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب  
في بناء الأخبية ، فدخلت القسم الذي فارقت هنذا فيه فرائها وسمية  
جالستين لا تتكلمان . ولما رأتها رجبتا بها ، وآتست في وجه هند  
انقباضا فقالت : « ما لهند غضبي ؟ » . فاجابت سمية بقولها :  
« ومن ذا الذي يقترب من النار ولا يحترق بها . أن ظلم هذا الجبار  
العاني ليصل حتى إلى أهل بيته »

وكانت ليلي تعلم ببغض هند للحجاج ، فلم تستغرب ذلك ، ولكنها  
اغتنمت الفرصة واجابت سمية قائلة : « أراك تشكين من الحجاج  
وقساوته وأنت لم تعرفيه إلا بالأمس ، وهو مغرم بك ، ولا يكاد  
يصدق انه حصل عليك »

فقطعت كلامها وقالت « لم يحصل ولن يحصل على شيء باذن الله »  
فقالت : « ولكن هذا بعيد وأنت في داره وبين يديه ليلا ونهارا »  
فاشارت بعينها كأنها تكتم أمرا لا تريد أن تبوح به أمام هند .  
فاستغربت ليلي قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت  
بها إلى خيمتها الخاصة ، فاستقبلتهما أمة الله جارية سمية وكانت  
تهيئ الطعام ، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها . فلما خلا المكان  
قالت ليلي : « رأيتك تتوعدين الحجاج وتبرئين منه وهو زوجك  
الشرعى ، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك ، فكيف تقولين أنه  
لم يحصل على شيء ؟ »

وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل ، وبين  
يديها وسادة تتشافل بأصلاح ثيابها وهي تسمع كلام ليلي . فلما  
سمعت سؤال ليلي بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا  
وبقيت تنظر إلى الأرض ويلي تفكر في ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب  
هذا الانفعال فقالت : « مالي أرى سمية ساكنة لا تجيبني عن سؤالى ؟  
كيف تقولين أنه لم يحصل عليك وأنت بين يديه ؟ »

فرفعت سمية رأسها وقد بدا التأثير في عينيها وشفتيها وقالت :  
« صدقيني يا ليلي ، انه لن يحصل مني على شيء رغم عقد قرانه بي .

ولم يكن ذلك تفضلاً منه ولكنه أجبر عليه لقسم سبق به لسانه . وأما كونه لن يحصل على فقد أعددت وسيلة أنجو بها منه الى جيبى . . » قالت ذلك وشرقت بريقها فاخنق صوتها فارسلت دموعها وهى صامتة لا تشهق ولا تتكلم ، فزداد عطف لى عليها ، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التى أعدتها للنجاة . فقالت : « وأى وسيلة أعددت ؟ وأين هو حسن الآن ؟ »

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب ، وهمت لى بأن تطمئنها عن حسن ولكنها خشيت أن يصيبها سوء من المفاجأة . فقالت : « اذا كنت تحبيننى فلا تخفى على سر هذا الأمر ، فقد رأيت منى كل اخلاص وأنا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتى . قولى ، ولا تخفى على شيئاً »

فقالت وهى تمسح دموعها : « أما سبب كونه لم يحصل على شيء منى ، فذلك انه أراد أن يطوف بالكعبة آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك ، فاقسم ألا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطبيب حتى يقتله »

فتذكرت لى أنها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه جيشاً كان ليلاً ونهاراً . واعزمت أن تفضى الى حسن بذلك لعلمها انه يشرح صدره ، ثم قالت لسمية : « وما هى الوسيلة التى دبرتها للنجاة منه فى المستقبل ؟ »

فمدت سمية يدها الى جيبها فأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدها فاذا فى داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج ، فتبادر الى ذهن لى أنها كتاب . ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين أصابعها وقالت : « ان الفرج يأتينى من هذا الدواء ! » فقالت لى : « وما ذلك ؟ »

فقالت : « هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فليذهب بى الى مكان أرجو أن ألقى حسناً فيه » فرأت لى أن تبسوح لها بالسر فقالت : « وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت حية ؟ »

فتفرست سمية فى وجه لى وهى تحسبها تمازحها وقالت : « لا تحببى الحياة الى ، فان لقائى اياه فى العالم الآخر خير وأبقى . أما هنا فلا أمل لى فى ذلك »

قالت : « لا تقطعى الأمل يا سمية » فأجابته وهى تحسبها تخفف عنها : « لا أبالى أقطعت الأمل ام لم

انقطع ، فان مدة عذابى فى هذا العالم أصبحت قصيرة ، ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائى فى هذه الصرة ، واذا مات » . ثم تنهدت وأكملت حديثها فقالت : « ولكن ما الفائدة من بقائى حية وحدى ؟ »

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد فى غنة صوتها : « اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لأن حسنا حى ! »

فلما سمعت سمية ذلك بغت وعادت الى التفرس فى وجه ليلى ، فرأت الجد باديا فى عينها فوثبت من مجلسها وقالت : « بالله أعيدى ذكره وعللينى ببقائه . قولى أنه حى فان ذكره يحيينى ! » . قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت : « ولكن ما الفائدة من التعلل بالأحلام ؟ »

فقالت ليلى : « لسنا فى حلم ، وانما نحن فى بقطة ، وقد آن لك ان ترى حسنا انه فى انتظارك على مقربة من هذا الجباء وسأدعوه اليك لتلتقيا » . ثم خفضت صوتها وقالت : « وتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر ، ولا خوف من مجيء الحجاج الى خيام النمنم ما دام قد أقسم لا يقربهن »



وكانت سمية تسمع قول ليلى وهى لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تزد بدا من تصديقه ولا سيما بعد أن سمعت ان حسنا يقرب خبائمه ، فهرولت الى شق فى الجباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر أحدا ، فنادت أمة الله فأسرعت اليها وقد أنارت السراج ودخلت حتى وضعت على المرسجة فقالت لها سمية : « هل رأيت أحدا جالسا حول هذا الجباء ؟ »

قالت : « كلا يا مولائى ولكننى رأيت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى : « هل رأيت أحدهما يحمل جرابا ؟ »

قالت : « أظننى رأيت مع أحدهما شيئا كالجراب »

فأسرعت ليلى وسمية فى أثرها وأطلتا من باب الجباء فلم تريا أحدا ، فتحولت ليلى نحو المكان الذى أجلست فيه حسنا فلم تر له أثرا ، فأسقط فى يدها ، وفكرت فى سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذى ذهب به فلم تهتد الى حل

أما سمية فخامرها شك فى قول ليلى ، ولكنها تحققت صدقها لما

بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من أمارات الانقباض،  
فقالت لها : « أين عسى أن يكون حسن الآن ؟ »

فقالت ليلي : « ان ذهابه لا بد أن يكون لأمر ذي بال ، فقد جاء معي وهو لا يكاد يصدق أنه يحظى برؤيتك ، وما أظنه تحول من هذا المكان برادته . وأمله يعود الليلة فلنترقب رجوعه . ولكن من يكون رفيقه الآخر وهو غريب في المعسكر وقد جاء إليه متكررا ؟ »

ثم دخلنا الخباء ، ومكنت سمية مطرقة مستفرقة في الهواجس وهي مرهفة سمعها فإذا هب النسيم. ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلي الى خباء هند وهي تكتم ما في نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا

أما سمية فنادت أمة الله وكانت انيستها في وحشتها وعزائها في آحزانها والمطلعة على مكتونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءها فأعادت الصوت فلم يجبها أحد ، فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع أن تراها فرأت في الظلام شبحين عرفت منهما أمة الله ، ورات الثانية بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت أن يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت : « أمة الله ؟ »

فقالت : « لبيك يا مولائي اني قادمة على عجل » . قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل ، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالمسير نحوهما فرأتها قادمين فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع أمة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت أنه بلباس حرس الحجاج ، فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله في إثرها . وكانت أمة الله قد أدركت اضطراب سيدتها من منظر الرجل فابتدتها قائلة : « لا تخافي يا مولائي ان الرجل رسول خير »  
قالت : « ممن ؟ »

قالت وقد خفضت صوتها : « من حسن »

فبدت البغلة في وجهها وقالت : « ليدخل »

فخرجت أمة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس . ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تميزا تاما . غير أن حرس الأمراء الأمويين كان لهم لباس خاص بهم ، اقتبس منه معاوية من الروم مع علامات خاصة ، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

أما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض :

« لا يزعجك أمرى يامولاتى ولا يخيفك هذا اللباس فانى خادم لك  
ولولاي حسن »

فلما سمعت صوته تفرست فى وجهه فعرفت أنه عبد الله خادم  
حسن فصاحت فيه : « أنت عبد الله ؟ »

قال : « نعم يامولاتى انى خادمك عبد الله »

قالت : « وما الذى جاء بك الى هذا المعسكر ؟ وأين حسن ؟ . هل  
هو حى كما يقولون ؟ » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال : « نعم يا سيدتى انه على قيد الحياة ، ولم أكن أعرف ذلك  
الا هذه الساعة ، وكنت قد بُست من حياته مثلك ولكن الله انعم  
علينا بنجاته . فالحمد لله »

قالت : « وأين هو ؟ »

قال : « انه مختبئ على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه احد ، لانه  
جاء متنكرا ولم ينتبه له الا أبوك ، فطلب الى الأمير أن يقبض عليه .  
وقد اطلعت أنا على هذه المكيدة فأسرعت اليه وأنباته بها ، وخرجت  
به الى مخبأ قرب هذا المعسكر ، وجئت لانيك بذلك لنتعاون على  
استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا فى خدمتكما »

فقالت : « سامح الله أبى ، بل لاسأله الله على مايسومنا اياه من البلاء .  
لقد أصبحت أكره اسم عرفة فجة وأكره أن أراه من أجل هذه المعاملة .  
آه ياربى ! ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ قل لى يا عبد الله : هل حسن فى مأمن ؟ »

قال : « نعم يامولاتى انه فى مكان أمين ولا بأس عليه »

فقالت : « وكيف ادخلت نفسك فى زمرة الحراس ، وكيف انطلى  
أمرك على الحجاج وعلى أبى ؟ »

قال : « أن حكايته طويلة ، وخلاصتها انى لما بُست من لقاء مولاي  
حسن فى المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب من خالد بن  
يزيد الى عبد الله بن الزبير لا بد من ايصاله اليه ، رأيت القدوم به الى  
مكة ، فاذا كان مولاي حسن قد سبقنى اليها لقيته وسلمته اليه ،  
واذا لم أجدّه اوصلت أنا الكتاب الى ابن الزبير . فلما دنوت من مكة  
علمت أن رجال الحجاج يحيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع أحد  
الدخول اليها ، وخشيت أن يقع الكتاب فى أيديهم ، واحتلت للدخول  
معسكر الحجاج لعلى اتنسم خبراً عن سيدى ، وقد يسر لى الدخول  
انى من ثقب قبيلة الحجاج ، وهو كثير الثقة فى أهل قبيلته ويعرفنى  
من قبل ، ولكننى أعلم أنه رجل شديد داهية فرجاً شك فى أمرى فيأمر

بقتلى، فعزمت على أن أتقرب إليه بأن أعطيه الكتاب، ولا سيما أنى لم ار فيه فائدة بعد فقد مولاي، وربما تمكنت باقتراي من الحجاج من استطلاع خبر مولاي، فتظاهرت بأنى قادم على الحجاج لأمر ذى بال يهمه، وجئت المعسكر وطلبت أن أقابله فى خلوة فأذن لى، فلما عرفته بنفسى عرفنى. ثم أخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم أن ليس فيه ذكر لمولاي حسن، وإنما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير فى أمر خطبة أو نحوها، فتظاهرت بأنى عثرت بالكتاب مع رجل قادم من الشام، ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت فى أمره فقتلت حامله، وجئت بالكتاب إليه

« فلما سمع الحجاج ذلك منى، مع علمه بأنى من قبيلته، أحسن الظن بى وقربنى منه وجعلنى من حراسه كما ترين. وفى مساء ذلك اليوم قدم أبوك على الحجاج فأطلعه على ذلك وأنا واقف بيباه. فلما اطلع أبوك على الكتاب نادانى فدخلت الفسطاط فقال: ( من أين أتيت بهذا الكتاب؟ ) . فقصصت عليه الخبر كما ذكرته، فقال: ( ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه فى المدينة وحاولنا قتله، ولكن الذى ذهب لاغتياله لم يعد إلينا، فهل قتلته أنت؟ ) . فلما سمعت قوله اطمأننت على حياة مولاي، ومضيت فى اتمام الحيلة فقلت: ( لا أعلم أهو الذى قتلته أم لا، ولكننى قتلت شابا بلباس كذا ) . وذكرت له ما يقرب من صفات مولاي فقال: ( لعله هو وقد أحسنت على أى حال ) . وادنانى أبوك منه ومكنت فى جملة الحراس وأنا اتفقد الاحوال واستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاي فى هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر، فعرفته، ولم ينتبه لى ولا أنا أردت أن يعرفنى لئلا ينكشف أمرنا. فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت. وكان أبوك مع الحجاج فى الفسطاط، فلما خرجت ليلى رأيت علائم الفدر فى وجه أبيك، وسمعتة يخاطب الحجاج فأصفيت فاذا هو يشير بأصبعه الى ليلى ويقول: ( ان راويتها جاسوس متنكر ) . وأشعار بالقبض عليه؛ فعلمت أنه عرف حسنا واحتلت فى الخروج حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء فأخبرنى أنه جاء من أهلك، فذهبت به الى خربة وراء هذا المعسكر لا يهتدى إليها أحد، ووعدته أن آتى اليك وأطلعك على أمره لندير حيلة للفرار »

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتناول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه. فلما جاء على آخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقها على حبيبها، فانبسطت أمرتها وقالت: « بورك فيك يا عبد الله، انك لنعم الرجل، واذا أتيت لنسأ أن ننجو على يدك فستكون شريكنا فى سعادتنا، والا فلا حول ولا .. »

فقال : « ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لابد من الصبر ، فاذنى لى فى الانصراف الآن ، لأعود الى موقفى لئلا يشكوا فى أمرى ، فاذا حدث شيء أو احتجت الى شيء فانى رهين اشارتك . واذا حدث غنىدى شيء جئتك به » . قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : « الى أين ؟ وكيف تترك حسنا وحده فى تلك المحربة ومن أين يأكل وأين ينام ؟ »

فقال : « اتظنين انى تركته ولم أعد اليه ؟ . كونى مطمئنة فانى ادبر به كل ما يحتاج اليه » . وودعها وخرج

وتذكرت سمية ليلى ، فنادت أمة الله وقالت لها : « أين هى ليلى ؟ » . فقالت : « هى فى خباء هند » . وخرجت ثم عادت تقول : « لم أجد فى الخباء أحدا »

فاستغربت ذلك وقالت : « ألم تسالى الخدم عنهما ؟ »

قالت : « سألت الخادمة فذكرت لى أن هندا خرجت عند الغروب تتمشى بين الأخبية ، ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت أثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين »

فقالت : « وأين تذهبان فى هذا الليل ؟ أخاف أن يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لأنها وأطأت حسنا على التنكر » . وخافت سمية اذا بالفت فى البحث عنهما أن تنصرف الشبهة اليها فدخلت خبائها وجلست تفكر فيما مر بها فى تلك الليلة من الغرائب . وكلما تصورت أنها نجت بحبيبيها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا

أما عرفة فإنه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه ، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلى ثم طلب القبض عليه كما تقدم . فغوض اليه الحجاج أن يفعل به ما شاء ، فلما أرفض المجلس خرج عرفة الى كبير الحراس وأوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون أثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه . وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك ، عادوا الى عرفة وأنبأوه بذلك فقال : « الى بليلى فانها فى أخبية النساء » . فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الأخبية ، فأشاروا اليها أن تأتى الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف أمرها ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسنارت مع الحراس حتى أتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبايه ، فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا آخر رأت فى صدره عرفة جالسا ، فلما رآته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ؛

ولكنها كانت جريئة لا تبالى بمن تلاقى ، فدعاها الى الجلوس وقال لها :  
« اين هو راويتك يا ليلي ؟ »

فلما سمعت سؤاله ادركت ان امر حسن قد انكشف فلم تشأ ان  
تشارك نفسها في ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ،  
فعمدت الى الحيلة وقالت : « واى راوية تعنى ؟ »

قال : « راويتك الذى يحمل جرابك وقد جئت به اليوم »

قالت : « وهل دخلت على الامير ومعى راوية ؟ »

قال : « لم يدخل معك ولكنه بقى خارجا ، ولما مضيت اقتفى اثرك »

قالت : « وهل يدل ذلك على انه راويتي ؟ وكيف يكون راويتي  
ولا ادعوه الى الجلوس فى حضرة الامير ؟ »

قال : « اراك تتصلين منه ونحن لا نريد به شرا »

قالت : « لا يهمنى ما تريدون به ، ولكنى جئت الى المعسكر بالأمس  
وليس معى راوية »

قال : « كان معك رجل يحمل جرابا »

قالت : « اتعنى الرجل الذى يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عند  
دخولى المعسكر ورايته يسير بجانبى فلم أنتبه لأمره ، ولا أفرقه . .  
ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يئذل نفسه فى خدمتك فلا  
حيلة لنا فيكم »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : « نحن لم نسيء الظن  
بك يا ليلي ، وانت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن  
هذا الرجل قد خدمنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه  
راويتك »

قالت : « وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثله  
حزما وقوة لجدير بان يخافه الجواسيس ، على انى لو علمت بجاسوس  
فى هذا المعسكر لاطلعت الامير على خبره »

قال : « بورك فيك ، وأرجو أن تكونى عينا على هذا الرجل ، فاذا  
رايته فانبئينا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على اثر  
ولعله يظهر غدا فاكتمى هذا الآن » . قال ذلك ونهض ، فنهضت  
ليلي وخرجت من عنده قلقة على حسن ، وان سرت لتجائته من  
قبضتهم . ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر ، فاطلعتها  
سمية على حديث عبد الله فاطمان بالها



قضى حسن ليلته في الخربة التي اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهي تطل على الطريق المؤدى الى مكة ، ولم يغمض له جفن لشدة قلقه وتششت افكاره . وقد عظم عليه أن يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه أدرك أنه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، وليث حتى الصباح وهو يفكر في وسيلة لانتقاذ سمية من الحجاج

وكان عبد الله قد وعده أن يوافيه في مخبئه ليدله على طريقة للفرار، فقضى ليله في هذه الهواجس ، وفي الصباح صعد على اكمة أشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله أو رسولا منه ، فرأى بينه وبين المعسكر أرضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادمًا على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثم اقترب الرجل منه فتبين أنه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترحل وأشار اليه أن يعود الى الخربة مخافة الرقباء، فقال له حسن : « ما وراءك الآن ؟ »

قال : « أبشرك أولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وإن كان قد عقد قرانه بها » . قال : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته عن ثقة ، فقد أخبرتنى به ليلي الاخيلية ، وهي التي ساعدتنا في تدبير الحيلة للخروج » . وذكر له أمر القسم الذي أقسمه الحجاج ، فانشرح لذلك صدر حسن ، ثم قال : « وماذا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج ، انى لاستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الى أن سمية لا ترضى منى هذا الضعف »

قال : « انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لانهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا . ثم أى فائدة من يقاتك في المعسكر بعد انكشاف أمرك ، وهل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟ . وعلى أى حال قد جئتك بما استقر رأينا عليه في هذا الصباح ، وهو أن أترك هذا الجمل عندك وأعود ، فتتأهب أنت للرحيل في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التي تراها امامك ، وستجدنى وسيدتى سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر في الصحراء أيما . ومتى بعمدنا عن مكة صرنا فى مأمن »

فسر حسن لهذا التدبير ، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : « احذر أن يطلع أحد على ما دبرتموه ، فتكون الثانية شرا من الاولى . وثق بأننى أن وقعت في هذه المرة فلن يسعنى الا أن اناضل عن سمية حتى أموت بين يديها »

قال : « لقد أمددنا كل شيء ، ولا خوف على سمية لأن الحجاج لا يأتى الى خباء أهله مطلقا في هذه الأيام للسبب الذي ذكرته لك »

اطمان بال تحسين وجلس في محبته بالخربة يتناول طعاما أحضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الأكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأى أكثر من عشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع ، وفي مقدمتهم فارس ضخم أسود ، هو قنبر عبد عرفة . فلما وصلوا الى المكان أشار قنبر بيده الى حسن وقال : « هذا هو فامسكوه » . فأحاطوا به من كل ناحية ، ولم ير حسن بدا من التجلد فقال لهم : « ما بالكم ؟ وما الذى تطلبونه ؟ » فضحك قنبر مستهزئا وقال : « ان الامير يدعوك الى وليمة العرس ! »

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به ، وقال له : « اخسا يا عبد السوء »

وما اتم كلامه حتى أحدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية في رأسه وقال لهم : « لا يفرنكم عددكم ، ولا تظنوا انى اهاب سيوفكم وخيولكم ، فاما أخبرقوني بما تريدون بالحسنى ، واما فلن تنالوا منى شعرة قبل ان يقطر حسامى من دمانكم » . قال ذلك وقد أخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالي بالحياة

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شعر السيف بيده وقال : « نراك تظهر من الضعف قوة ، وما انت الا جاسوس نذل لا أحسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وصاح في هذا الفارس قائلا : « اتخوفنى بسيفك ؟ انما يخاف السيوف من يخاف الموت ، ولست ذلك الرجل . فاذا أردت النزال فانزل نتبارز راجلين ، فلا يصح النزال وانت راكب وانا راجل . واذا خفت فانزلوا جميعا وانا أستعين الله عليكم »

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : « لو ان الامير امرنا بقتلك لاريتك القتل كيف يكون ، ولكنه امرنا أن نقودك اليه أسيرا . فامش »

قال : « لا أسير ماشيا وانتم راكبون ، فاما ان اركب معكم أو تمشوا معى ! »

فلما راوا هذه الجرأة منه هابوه وحسبوا له حسابا ، وجعلوا يتشاورون فيما يفعلونه . فأشار بعضهم بقتله ، وعارض آخرون لأن الأمير لم يأمرهم بذلك . ثم قر رأيهم على مسايrote ريثما يلبفون به المعسكر ويقدمونه فيرى الأمير رأيه فيه

وكانوا يعلمون أنه يندر أن يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل . فانه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم في حياته فبلغوا مائة ألف وعشرين ألفا . ووجدوا في سجنه بعد موته ثلاثة وثلاثين ألفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب . فرأى الفرسان أن يعاملوا حسنا بالحسنى ويتركوا أمر الإيقاع به الى الحجاج . فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه أولا وقال له : « لو كنا قد امرنا بقتلك لقاتلناك مشاة أو فرسانا ، ويحكم الله بيننا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير »

قال : « قلت لكم انى لا أسير معكم ماشيا وأنتم راكبون » . وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرائه ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ووطائهم : « امش يا حسن وهل أنت أحسن منى ؟ »

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : « اذا تكلم الناس فاخرس أنت يا عبد النحس . والا فانى مطير رأسك بحد هذا السيف »

فضحك قنبر حتى باتت نواجذه ثم قال : « بعد قليل نرى من المقتول منا ، ولكنك غير ملوم لأن سمية خرجت من يديك ، تعال وانظرها بين نساء الامير ! »

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه أن يحتقره ذلك العبد ويهزأ به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان من وقاحته ، ولكنه أمسك نفسه وقال له : « لولا خوئى أن يقال لطحخت حسامى بدم عبد لئيم لأطرت رأسك من جذعك ، ولكننى أرجو أن يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبنى والا فأنت الجانى على نفسك » .

فلم يزد قنبر الا قحة واستخفافا ، واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : « المثلى تقول هذا الكلام يا حسن ثم تعرض بذكر مولاى ، والله انى ضاربك ضربة أعلمك بها الادب والحشمة » . قال ذلك وهم باستلال السيف ، فعيل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقية الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدحرج على الاحجار

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : « لقد حل لنا دمك بعد هذه الجراة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟ »

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : « اتعدون هذا رجلا ؟ . ان من يعده رجلا لجدير بأن يناله ما ناله . ثم انى رايتكم سكتتم عن قحته فلم يسعنى الا قتله ، وقد قلت لكم انى لا أبالي الموت فلا تخوفونى به » . قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، وظل واقفا وسيفه يقطر من

دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويثس من الحياة ، لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى آخر نسمة من حياته ، فاذا مات مات كريما

على انه ما لبث أن رأى الفرسان يتسارون ، ثم تقدم أحدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : « هذا جوادى فاركه حتى تأتى المعسكر وشانك والامير ، وساركب انا جلك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به ، وأدرك انه هو الذى حملهم على الابقاء عليه . فركب الجواد ، وساروا جميعا نحو المعسكر

وكان السبب فى معرفة مكان حسن ، ان عرفة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه فى المعسكر ، فقضى هذا طول الليل فى البحث ، وفى الصباح رأى هجانا قادمة الى المعسكر من ناحية تلك الخربة ، فلم يعرف الهجان ولكنه شك فى امره ، فذهب يبحث فى المكان الذى رآه قادمة منه ، وهناك وقع بصره على حسن وجله فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى ، فاوزع هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحراس ، فلما علم بالامر احتال حتى الحق بأولئك الفرسان ، لعله يستطيع مساعدة سيده ، وبذل جهده حتى ابقوا عليه حتى بعد أن قام بقتل قنبر ، رغم ماله من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده ، ولأنه ينفع فى مثل هذه المهام

وقد ساعد عبد الله فى بلوغ غايته ان الجند لم يكونوا يحبون قنبر لفراط استبداده وقحته - واستبداد العبيد ثقل على الطباع - فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين انفسهم ، وان اظهروا الغضب

وبعد أن أرسل عرفة الفرسان دخل على الحجاج فى خيمته ، وجلسا ينتظران ما يكون ، وأخذ عرفة يمهّد للفتك بحسن ، فاقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه اذا بقى حيا فلا يؤمن شره . وماكان الحجاج فى حاجة الى من يوصيه بالقتل ، وهو بطبعه شديد الرغبة فى سفك الدماء

وآن وقت الغداء ، فلم يشأ الحجاج مغادرة القسطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذى بالغ عرفة فى وصف خطره ، فلما أحس الجوع أمر بان يؤتى بالطعام الى القسطاط ، وكان الحجاج من الاكلة المشهورين فى الاسلام أمثال : سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش ، وغيرهما ، حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سمكة فى أكلة واحدة ! . فلما جاءوه بالطعام دعا من فى مجلسه الى مشاركته فيه ،

فاعتذروا جميعا تهبيا منه الا عرفجة فانه اكل معه ، وان ظل طول الاكل قلعا يفكر فيما دبره لحسن من المكاييد . فلما قرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة ، وجلس الحجاج صامتا . وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكبت لبث الذين في حضرته سكوتا كان على رؤوسهم الطير



وفيما هم على تلك الحال ، دخل الحاجب وقال : « لقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون »

فقال الحجاج : « وهل الاسير معهم ؟ »

قال : « لم أر بينهم أحدا ماشيا »

قال : « لعله جاء على جواد » . قال : « ان بينهم رجلا بلباس غريب ، فلهله هو الاسير »

فنهض عرفجة ووقف بباب الفسطاط يتفرس في القادمين ، ولما وقع نظره على حسن عرفه ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها بعد مقابلتهما في المدينة

ولما رأى حسن عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وود لو أن سيفه أصاب عنقه بدلا من قنبر . ولاحظ عرفجة أن قنبر ليس بين القادمين فظنه تأخر في الطريق ، وعاد الى الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الأذن وانبا الحجاج بوصولهم فقال : « ادخلوا الرجل لتراه »

فادخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين احدهما عبد الله وفي يد كل منهما حربة . ولا تسلم عن هواجس عبد الله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء . وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كانه بين بعض الاصدقاء ، والتفت الى من حوله في الفسطاط قرأى في صدره الحجاج وعرفجة ، والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهبيا من الحجاج . لانه قلما رؤى ضاحكا ، واذا ضحك فانه لا يزيد على أن يكشر عن أنيابه . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد فيه أي أثر لغير التجهم والعبوس !

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطائه ورغبته في سفك الدماء ، ولكنه اعتزم الصبر والثبات حتى الموت ، وبقي واقفا برهة لا يخاطبه أحد في شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له : « ممن أنت ؟ »

قال : « ما انا من ثقيف ولا من امية »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « اعنى انى لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ، ومهما يكن من امرى بعد ذلك فليس مما يغير رأى الامير في .. »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « أبمثل هذا الجواب يخاطب ولى امير المؤمنين ؟ ! انها قحة ! »

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة والتفت اليه وقال : « بل القحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه »

فأراد عرفجة أن يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، وقال الحجاج : « لسنا في مقام جدال ، فأخبرنى ما الذى جاء بك الى هذا المعسكر متكررا ؟ »

فتحير حسن ، ولم يدر به يجيب ، وخاف أن يصرح بحقيقة غرضه فيهيج غيره الحجاج عليه ، ولا سبيل بعد ذلك للنجاة ، فلبث ساكنا . فاستبطل الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقال حسن : « جئت لأمر يهمنى ولا يهم سواى ولا علاقة له بأمر الخلافة أو الامارة »

قال الحجاج : « نرى أجوبتك مبهمة فافصح »

فلبث حسن ساكنا ، فاجتثم عرفجة فرصة سكوته وقال للحجاج : « ان أجوبته مبهمة لانه يخاف أن يعترف بفعلته ، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير . بل هو عدو امير المؤمنين يتمنى سقوط دولته ويسمى في ذلك جهده . واذا شئت أن تتحقق ذلك فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين »

فالتفت الحجاج الى حسن كانه يستطلع رايه فيما قاله عرفجة ، فقال حسن : « حاشى لله أن اكون كما يقول »

فقال الحجاج : « اذا كان الامر كذلك ، فالعن الكاذبين : عليا بن ابي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن ابي عبيد »

فارتبك حسن لانه لا يعتقد كذب هؤلاء ، ولا يريد أن يلعنهم . وكان يعلم انه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال : « لا ارى علاقة بين صدق نيتى في خدمة امير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء »

فقال عرفجة : « أرايت بامولاي كيف هو خائن غادر يكذب على الامير كذبا صريحا ؟ . اما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل ؟ اقبله بامولاي وارح نفسك منه » . قال ذلك وأطرافه ترتعش ولحيته

تنتفض في وجهه على صغرها ، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما  
حصرم

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر ، فأدرك أن تمنع حسن  
عن اللعن لا يدل على جاسوسيته ، ولكنه أعاد السؤال عليه وقال :  
« لقد صبرنا عليك حتى الآن . سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا  
ذنب وحده يكفي لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك في طرق هذا المعسكر  
متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت . فهل تتوقع  
أن نصبر عليك أكثر مما صبرنا ؟ »

فلما سمع كلام الحجاج أيقن بدنو أجله ، ولكنه لم يجزع ، وعز عليه  
أن يشمت به عرفة ، فلبث ساكنا يفكر فيما يفعل ، واغتتم عرفة  
الفرصة فخطبه قائلا : « أجب الأمير . الست جاسوسا خائنا جئت  
لتكيد لأمير المؤمنين ؟ »

ثم التفت إلى الحجاج وقال : « انى أعجب لصبر مولاي على هذا الخائن  
وكيف لم يأمر بقطع رأسه ؟ »

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف أن تنفذ حيلة عرفة فيه  
فأمر الحجاج بقتله ، اعتزم الإيقاع بعرفة ، فالتفت إليه وخطبه  
بقلب جسور وقال : « ألدعوني خائنا وما الخائن إلا أنت ؟ »

فوثب عرفة من مجلسه مغضبا وقال : « كيف تجرؤ على هذا  
الكذب في حضرة الأمير وهو أعلم الناس بصدق طاعتي وأخلاصى . والله  
لو أذن لى الأمير لقطعت رأسك بيدي ، فانى لأعلم الناس بخيانتك ،  
ويعلمها أيضا غلامى قنبر . قال هذا ثم تلفت حوله متفقدا عبده  
قنبر ، فلما لم يجده صاح : « أين قنبر ؟ » . فأجابه حسن ساخرا  
وقال : « لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه ! » . فالتفت عرفة إلى  
الحراس مستغفما ، وقبل أن يسألهم أشار أحدهم بيده إشارة فهم  
منها أن قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفة وحلق عينيه وصاح فيه :  
« وهل قتلت غلامى أيضا ؟ » ثم تقف غير خائف من القصاص ؟ ! » .  
ثم التفت إلى الحجاج وقال : « أترأه لم يستوجب القتل بعد ؟ »

فابتدره حسن قائلا : « قتلته لخيانته ، وسوف تنال جزاءك بأمر  
مولانا الأمير متى ثبتت خيانتك »

فقال عرفة : « اتهمنى بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد  
اضفت إليها جريمة القتل ؟ »

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على  
الأخر ، رأى من الحزم والدهاء أن يصبر حتى يستمع لجدالهما ، وأن  
كان هذا على غير ما تعودده جلاسه منه

أما حسن فلما رأى الججاج مصفيا ، التفت الى من حوله من الأمراء  
وقال : « أشهدكم على أن دم الخائن مهذور أيا كان ! »  
فقال عرفجة : « ما الخائن إلا أنت »

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت  
هادئ : « من الخائن منا يا عرفجة ؟ . أنا الخائن وأنت الأمين الصادق  
في خدمة أمير المؤمنين ؟ »  
قال : « وهل في ذلك شك ؟ »

قال : « وماذا تقول في الكرسي ؟ »  
فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصه وبدأت البغته في  
وجهه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر  
الاستخفاف : « أي كرسي ؟ . لاشك في أنك تهذى »

فقال حسن : « أنسيت الكرسي ولهيب ناره لا يزال يلفح وجهك ؟ .  
أفلم تترك أي كرسي أعني يا عرفجة ؟ »  
فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسي ، ولكنه استغرب  
ذلك وأتكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال : « مبالك تهذى يا رجل ؟ .  
وأي كرسي تعني ؟ »

وكان الججاج ينظر في عيني عرفجة ، فلم يخف عليه أنه في ورطة ،  
وبقي صامتا يصفي . فقال حسن : « ألم تفهم أي كرسي يا عرفجة ؟ .  
هو كرسي المختار بن أبي عبيد الذي كلفتموني لعنه الآن ! »

فازداد تغير وجه عرفجة وقال : « وما شأنه ؟ وما علاقة المختار  
بما تقول ؟ »

فقال حسن وقد رفع صوته : « ألا تعرف علاقته بك ؟ إذا كنت  
لا تعرف تلك العلاقة ، فاسأل محمدا بن الحنفية ، وهو قريب من هنا .  
اسأله أو اسأل من شئت . وإذا أنكرت استنطقنا رماد الكرسي »

فلما سمع عرفجة هذا التعريض أوجس في نفسه خيفة ، ولم يجد  
سبيلا الى التخلص إلا أن يمضي في تجاهله ومغالطته فقال وهو يضحك :  
« أنظن مثل هذه المفتريات تنطلي على مولانا الأمير ؟ وهل تظنه يصفى  
لكلام مختلق لا معنى له ولا أصل ؟ . ان الأمير أن يكن قد مد لك في جبل  
الحلم ، فما ذلك إلا لكي يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لامثالك من  
الخائنين »

فقال حسن : « للأمير أن يفعل بي ما يشاء ، ولكن ذلك لا ينبغي كونك  
خائنا منافقا . وإذا كنت قد أنكرت أمر الكرسي ، فإن أمره معروف  
وأهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة أعوام على محفة لا يعرف أحدا



ما فيها . ولم يكن فيها الا كرسى المختار الذى زعم انه لعلى بن أبى طالب ، واستغله فى الدعوة الى قتال بنى أمية من ورائه ، فلما مات أخذت أنت الكرسى لنفسك ، لتخلف المختار فى استغلاله لمناسبة بنى أمية العبداء ومحاولة اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذى كان المختار يدعو له »

فقطع عرفة كلامه وقال : « ما هذا الا اختلاق »

فقال حسن : « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما يكن من امره فيما يختص بالخلافة فلا يشك احد فى صدقه ، واذا كان شعب على بعيدا من هنا ، ففى المسجد بمكة من شهدوا حريق الكرسى معي ، وشهدوا الاهانة التى لحقت بعرفة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستأذنا فى الدعوة الى بيعته وخلق طاعة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ! »

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من فى القسطنطين ، ومال الحجاج الى تصديق حسن ، وكان الحجاج مع تقريبه عرفة لايجهل خبئه ونفاقه ، ولكنه انما يقربه لانه يحتاج الى أمثاله فى بعض أغراضه . فلما رجح ثبوت هذه التهمة عليه صمم على قتله ، ولكنه أجل ذلك ليرى ما يكون . اما عرفة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء : « بلوح لى أن مولاي الأمير سكت عما سمعه من هذا الرجل كأنه مال الى تصديقه »

فقال الحجاج : « وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقا ؟ »

قال : « نعم يامولاي »

فقال الحجاج : « لا يعقل انه يفعل ذلك ، ولا سيما انه يستشهد اناسا معروفين . ثم ما الذى يدعو الى هذا الاختلاق ؟ »

فقال : « يدعو الى ذلك أمر أقطع من خيانتة ، ولو أنى ذكرته لك ما ترددت فى صلبه ! »

فقال : « وما ذلك ؟ »

قال : « انى لأضن بعرض الأمير أن يذكر فى مثل هذا المقام ، فاذا أذن مولاي فى خلو ذكرت له السبب ، وأنا ضامن انه يقتنع ببراءتى »

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده فخرج كل من فى القسطنطين الامراء والحراس وبينهم حسن ، وقد ساروا فى وجوه الامراء من دلائل نعمتهم على عرفة لفظاظته وسوء سريره . وان أظهروا له غير ذلك خوفا من الحجاج . وفاتهم أن الحجاج نفسه لم يكن يثق به

فلما خلا عرفة الى الحجاج أخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية

ثم قال : « وقد كنت أعدها لخدمة مولاي بعد أن طلبها منذ أعوام ، فجاء هذا الشاب وخدمها بجبهه ، وهى فتاة لاتدرك أمور الدنيا ، فأنخدعت بظاهره ، وكادت توافقه على أن تفر معه لو لم اطلع على فعلته ، فسمعت في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة . وهذا طارق بين يدي مولاي يتنك بصدق قولى . ولكن الرجل الذى أنفذناه لقتله لم يظفر به ، فجاء ثم جاء متنكرا الى معسكر الامير بعد أن علم بزفافها اليه ليحاول أن يخدمها مرة ثانية ، ولكنى رأيت ساعة مجيئه مع ليلى بالامس ، وبعثت من يأتون به ، فعلمت انه سار الى جهة أخبية النساء ، وقد شق على أن اصرح بذلك لمولاي الامير لئلا اكدره ، فاكفيت بان ذكرت انه جاسوس ، لعلمى بأنه صاحب الكتاب الذى جاءنا به الفتى الثقفى منذ حين وظنناه قتله . ثم علمت بأنه فر الى الحربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قولى ، انك لما سألت عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جوابا »

فراى الحجاج كلام عرفة معقولا ، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضا فلم ير خيرا من التريث حتى ينجلي له وجه الصواب . فأمر بسجن حسن ، وتظاهر بأنه أقتنع ببراءة عرفة

سيق حسن الى خيمة أفردوها له في طرف المعسكر ، ووقف ببابها حارسان مسلحان . فلما تركوه فيها بعد أن شدوا وثاقه اتقن باستحالة النجاة ، وجعل يفكر فيما مر به وما كان من أمر عرفة معه ، فرأى أن الحجاج لم يقتنع كل الاقتناع بخيانة عرفة ، وأدرك أن هذا يستعديه عليه من طريق إثارة غيرته ، والغيرة تعمى وتصم

وقضى حسن في ذلك بقية يومه ، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا ، ثم قضى ليلته ساهرا وخيال سمية أمام عينيه ، وفكره يبحث عبثا عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد أثقلته الأغلال ، سمع وقع أقدام خفيفة في الخيمة ، ثم صوتا يهمس في أذنه قائلا : « لا تخف يا مولاي أتى خادمك عبد الله »

وحاول أن ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له : « لقد احتلت حتى جعلونى أحد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك ، وأنا الآن في ربة السهر على حراستك . وقد نام رفيقى فدخلت لأسألك عما تريد »

فقال حسن : « لا أريد شيئا ولا رغبة لى في النجاة ، الا اذانجت سمية معى »

فقال عبد الله : « وما حيلة الحر الأعزل يا مولاي اذا وقع بين أيدي

من لا يتورعون عن قتله ظلما وعدوانا ، مستعينين بكثرة عددهم وعهدتهم ؟ ! أسلم نفسه لهم طوعا ، أم يحاول الخلاص من أيديهم بأى وسيلة ؟ !

قال : « أتريد أن أفر من المعسكر وحدى وأترك سمية في بيت الحجاج ؟ وهل تحسب أن حياتي بعيدا من سمية مما أحرص عليه ؟ » فقال عبد الله : « لا يا مولاي ، لست أعني أن تخرج وحدك ، وإنما أعني البحث عن وسيلة تخرج بها أنت وسمية معا . ولا عار في الفرار من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعى العدل »

فسكت حسن ، واستأنف عبد الله الكلام فقال : « سأذهب غدا الى خباء النساء لاستطلاع الامر ، ثم أعود اليك بما يستقر عليه الرأي . فدع القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج » . ثم ودعه وخرج وشعر حسن بالارتياح وأعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ، ثم مكث في اليوم التالي ينتظر رجوعه

وكانت سفينة قد واعدت عبد الله على الخروج معه في مساء الامس ، ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر : وسجنه ، وما لبثت أن رأت الجند قد أهدقوا بخبائها ومعهم السلاح ، فأيقنت أن الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحقت وقوعها في الخطر ، ودعت اليها أمة الله جاريتها ، وكانت هي التي أخبرتها بسجن حسن ، فجاءت وهي تظهر عدم البالاة ، فقالت لها سمية : « هل رأيت الجند المحققين بنا احداقهم بالقتلة المجرمين ؟ »

قالت : « رأيتهم . ولكن ما لنا ولهم ؟ »

فقالت سمية : « أنتجاهلين يا أمة الله ؟ ألا ترين أنهم سجنوني كما سجنوه ؟ وهل تشكين في أن ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني وبين حسن فلم يبق الا أن يفتك بنا ؟ ! »

قالت : « لا اظنه يفتك بك »

فقطعت كلامها وقالت « تظنينه يستبقيني لأربه الدنيء ! . ولكن ما أنا بمبقية على نفسي . أين السم الذي حفظته لي ؟ . لقد آن وقته ! » . وكانت أمة الله قد أخذته لتحفظه عندها

قالت : « لا اظن وقته أزف يا مولاتي ، وحسن لا يزال على قيد الحياة ، ومن يدري ما يأتي به الغد ؟ »

قالت : « اتتوقعن لحسن البقاء وقد وقع في قبضة هذا الظالم الذي لا يرى فيه الا مناظره على عروسه ؟ . آه يا أمة الله ! يا ليتني ظلت على ياسي الماضي ولم أعلم ببقاء حسن حيا ! ان هذا لن يعفيه من

القتل . فكيف أبغى الحياة في بيت رجل قتل حبیبی ؟ »  
فقطعت أمة الله كلامها وقالت : « انه لم يقتله بعد يا مولاتی . وعسى  
الله أن ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شيء »  
قالت : « نعم ان الله قادر على كل شيء ، ولكن اليس حسن في حكم  
المقتول الآن ؟ » . قالت ذلك وخنقتها العبرات

فاحتارت أمة الله ، ولم تدرب تمزيها من توقع قتل حبیبها ، ولم  
تستطع لومها على تفكيرها في الانتحار حتى لا تبقى في بيت قاتل  
حبیبها ، فظلت ساكنة ، واستأنفت سمية الكلام فقالت : « أين السم ؟  
أعطيني إياه »

فتغير وجه أمة الله وتناثر الدموع من عينيها وقالت : « دعى السم  
الآن فان وقته لم يأت بعد »

قالت : « أعطيني إياه ، وأما هلك على أنى لا اتناوله الا بعد أن أقطع  
الامل من بقاء حسن » . ثم أطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت أمة  
الله معها ، ولكنها أشققت عليها من الاسترسال في الحزن على هذه  
الصورة فكظمت ما في نفسها وقالت : « أتعدينى أنك لا تتناولين السم  
الا بعد وقوع الخطر حقيقة ؟ » . فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم  
عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام . فتناولته منها وقبلته  
وهي تقول : « أنت هو متقذى من أحزاني ومتاعبى . أنت وحدك  
معينى على قهر ذلك العاتى ، واتقذى منه »

وكان الحجاج قد أمر باخراج النساء من الجباء الاسمية وخدامتها  
وأمر الحراس أن يحدقوا به وهم في غفلة عن سبب ذلك ، فكانت سمية  
تصيح بسمعها من جدران الجباء لما يتحدث الحراس به . وسمعهم  
يتحدثون بما أظهره حسن من الشبهة وعزة النفس وما ظهر في كلام  
عرفجة من التسلاعب والقدور . وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص  
قلبا فرحا ولكنها لا تلبث أن تعود الى هواجسها

أما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها في أمر القرار رأى الحرس  
محدثا بخبائها فعاد ولم يرها ، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيدا  
عنده ففرغ بآماله الى الصبر والتسليم للأقدار



قضى حسن أياما على هذه الحال ، ثم حدث أن رأى نفسه فيما يرى  
النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذى تركه في مكة : « اذا استبطأنى  
فاظلمنى في معسكر الحجاج » . فلاح لحسن أن يكون لبلال جاء المعسكر

ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيامته فقال عبد الله : « رايت في هذا المعسكر عبدا اظنه هو الذى تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له احد لان الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرقبة امره واتهمه بالجاسوسية »

فقال حسن : « بهمنى امر هذا العبد ، فاستقدمه الى على عجل » فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن متظاهرا بأنه يحمل له طعاما ، فقال بلال لحسن : « لقد بحثت عنك حتى يسست من لقائك وكدت أرجع خائبا . فالحمد لله على انى رايتك ولو فى السجن . . . » فقال حسن : « وماذا وراءك ؟ »

قال : « جئت اليك فى مهمة مستعجلة واخشى ان يكون قد فات اوانها »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « استدعانى ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير فى مكة وسألنى عنك ، فلما أجبتته بأنك لم تعد بعد قال : ( ان اميز المؤمنين عبد الله ابن الزبير يجب ان يراك لامر ذى بال خاطبه فى شأنه منذ بضعة وعشرين يوما ، وهو يريد الآن ان يعهد اليه فى امر مهم ) . فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة أيام فى البحث عنك حتى جاءنى عبد الله كما رايت »

فقال حسن : « ابن الزبير يطلب ان يرانى فى مكة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاي وقد الح على كثيرا ، وقال ان الوقت ضيق فاطرق حسن وأعمل فكره فتبين له ان ابن الزبير انما طلبه فى شأن خطبة اخته رمة لخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز لأجل هذا الامر ، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين ، فالتفت الى عبد الله وقال : « انك عرضت على منذ أيام ان تخرجنى من هذا المعسكر ، فهل تستطيع هذا اليوم ؟ »

قال : « ذلك سهل على فى أى وقت تشاء ، وانى أفديك بروحى »

فقال : « لا أبغى القرار وانما أبغى الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود فى الصباح الى محبسى »

فأعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له : « افعل ما بدا لك فانى رهن اشارتك »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله : « تمهل قليلا حتى يجىء الليل فأعطيك ثوبى فتلبسه وتخرج به والبس انا ثوبى

وأحل مملك هنا ريثما تعود ، وسوف لا يشك من يراك أنك من حراس  
الحجاج ، فتظاهر بأنك ذاهب في مهمة الى ابن الزبير ، وإذا رايت أن  
تبقى هناك على أن الحق بك ، فافعل »

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته في سبيل نجاته ، فقال :  
« بورك فيك من صديق صادق ، أخاف أن أصاب بسوء فلا أعود فتقع  
أنت تحت طائلة العقاب »

قال : « إذا أصابك سوء ، فلن يبقى لي مآرب في الحياة . على أن القوم  
يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير ، فما اظنهم ينتبهون لخروجك ،  
ولن أجد مشقة في إطلاق نفسي من السجن »

فقطع حسن كلامه وقال : « أما رجوعي فلا بد منه لأنني لا اسطيع  
أن اترك سمية » . قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرا جديدا طرق ذهنه  
ثم قال : « ولا بد لي من الانتقام من أبيها الخائن » . ثم التفت الى بلال  
وقال له : « أتذكر ما رأيناه خلصة من خيمة صاحبك سعيد في  
فسطاط محمد بن الحنفية ؟ »

قال : « اتعنى حكاية عرفة والكرسي ؟ »

قال : « أياها أتعنى ، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن  
الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفة جاء بذلك الكرسي وعرض  
عليه أن يدعو الى بيعته أهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن  
مروان ؟ »

قال بلال : « ذلك شيء يسير ، فاني صديق قديم لسعيد ، ولهذا  
دالة عليه »

فقال حسن : « اذن اذهب الآن الى شعب على ، واسلك أقرب  
انطرق اليه ، فإذا حصلت على الكتاب فاعجل بالعودة به الى هنا ،  
حيث أكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير »

فخرج بلال وسار في مهمته . وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد  
القوم يتأهبون للقتال في صباح الغد ، ورأي زميله واقفا بباب الخيمة  
ينظر اليهم متحسرا على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض  
الغنيمة . فقال له : « إذا شئت إلحق بالجنود فافعل وأنا ابقى هنا  
لحراسة السجن » . فسير الرجل وشكره وانصرف

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فلبسه ثيابه وسلمه  
الحربة ، ثم ليس هو ثياب حسن وجلس مكانه . فخرج حسن  
قاصدا الى مكة ، ولم يشك فيه أخذ لظنهم أنه من الحراس ولا نشغالهم  
بالتأهب للهجوم على مكة

## أم ابن الزبير

دخل حسن مكة دون أن يعترضه أحد ، ولاحظ أن أسواقها خالية من الناس ، غير أنه ماكاد يشرف على المسجد حتى وجد الناس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم أنهم يتوقعون شرا ولم يفتحهم مانواه الحجاج . فسارتوا الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس يتدافعون عند بابه ، وسأل عن ابن صفوان فعلم أنه في خلوة مع ابن الزبير ، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل ، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتصبا بالحجرة التي فيها عبد الله ، فلما بلغها سأل الخدم عما يريد ، فذكر أنه يريد مقابلة أمير المؤمنين لأمر ذي بال ، فأبلغوا أمره الى ابن صفوان ، فخرج اليه وما كاد يراه حتى رحب به ، فسأله حسن : « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال : « تركته يصلى الفجر »

قال : « لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه »

فقال : « نعم لقد طلب أن يراك لأمر يريد أن يسره اليك . وسوف ادخلك عليه » . قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن في انتظار عودته في فناء البيت وهو يتوقع أن يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلى في المسجد من عهد قريب

على أن انتظاره لم يطل ، وسرعان ما عاد ابن صفوان وأشار اليه أن يتبعه ، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسطها وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز ، وتحتها سراويل ومنطقة ، وقد فاحت منه رائحة المسك . فهم حسن بتقبيل يده ، فلم يمكنه من ذلك ورحب به ، ثم أشار الى ابن صفوان فخرج ، وأقفل عبد الله الباب بنفسه ، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفا ينتظر ما يبدو منه ، فرآه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضا على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه ، وأشار إليه أن يجلس بجانبه ، فجلس صامتا

وظل عبد الله مطرقا وهو يلعب لحيته بين أنامله ، ثم التفت الى حسن وقال له : « ما أظنك حصلت على كتاب من خالد »

قال : « ان الرسول لم يعد بعد »

قال : « وما أظننى أراه ولو عاد من القدر »  
فقال حسن دون أن يدرك قصده : « كيف لا وهو رهن إشارة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « على أى حال ، لقد أيقنت بصديق رغبة خالد فى الزواج من أختى ، وإنه فيما علمت لأفضل القوم ، فإذا لقيتَه فأوصه عني بها خيرا ، وأذكر له أن مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو أنه عجل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر ، بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . » قال هذا وقد ظهر التأثير فى عينيه وخشن صوته ، ثم واصل كلامه قائلا : « ليت شعرى كيف يسود العتاة الظلمة ؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه ؟ »  
فادرك حسن أنه يشس من الفوز ، وأراد أن يستطلع ما اعتزمه فقال :  
« لا يخفى على مولاي أن النصر من عند الله يؤتیه من يشاء ، ولا عجب فى أن تكون الغلبة فى الدنيا لمن همهم الدنيا ، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الإمام على صهر الرسول وابن عمه ؛ وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته . ذلك لأن الدنيا شيء والآخرة شيء آخر ، وقد أنقضى العصر الذى ساد فيه الحق والدين والتقوى ، وأصبح الحكم الآن لا بتوَلاه غير أهل الذهء والسياسة و . . . »  
ولما بلغ إلى هنا بلغ ريقه وبدأ فى وجهه أنه أراد التصريح بشيء ثم توقف خوفا أو حياء . فنظر عبد الله إليه نظرة من يتوقع اتهام الكلام ، فأمم حسن كلامه قائلا : « ولا أخفى على مولاي أن آل مروان ، وآل أبى سفيان قبلهم ، لم يخلص لهم الملك دون بنى هاشم وغيرهم إلا بالذهء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وأنصارهم . » فلما ذكر المال ، بدأ الانقباض فى وجه عبد الله وقال :  
« لا تذكرنى بالمال وأمره فقد كنت شحيحا به لأنه مال بيت الله ، ولعلنى لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامردونى . ولكنى لا أتمنى الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال »

فقال حسن : « لو أن مولاي أصغى لمشورة الحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر إلى بنى مروان . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم ، ولقد سمعته كذلك من كثيرين ، على انى لو اطعت الحصين ورافقته إلى دمشق لما بايعنى بنو أمية . فهؤلاء شق عليهم أن يبايعونا فى ديارنا وبين أهلنا . فكيف لا يكون ذلك أشق عليهم فى ديارهم وبين أحزابهم . ومع ذلك فقد قضى الامر . وما بعثت إليك إلا لأوصيك بأختى خيرا ، فأوص بها خالدا ، وأبلغه عني أنى أوصيه كذلك بأن يدع أمر الخلافة فأنها شاقة على أهل الدين فى هذا الزمان ، وليشتغل بما



هو مشغول به من العلم والكيمياء فذلك خير له وأجدي عليه . ولا أخفي عليك أنى قطعت الأمل في الفوز بعد أن نبذني الأهل والأصدقاء خوفا من الموت ، ولو أنى طلبت الدنيا لما امتنع على الحصول عليها . ولكننى أطلب الآخرة ، وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصفوا ، فلم يبق إلا أن أتركهم وشأنهم . وقد أنبأني الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجنتنا في الغد ، ويفعل الله ما يشاء » . قال ذلك وغص بريقه فتشأغل باصلاح غمد حسامه ، ثم وقف وقال : « تعال معى الى أمى لآخبرها بما استقر عليه الراى فى شأن رملة »

فوقف حسن ومشى فى أثره وقد لاح ضوء الفجر ، فدخل حجرة رآى حسن فى صدرها امرأة عجوزا عرف أنها أسماء ذات النطاقين أم عبد الله ، وهى بنت أبى بكر الصديق ، وأخت عائشة زوج النبى . وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم فى وجهها ، فحياها عبد الله وقبل بيدها ، فقبلته وتنهدت ثم قالت : « ما وراءك يابنى ؟ مالى أشم منك رائحة الخنوط ؟ »

قال : « أنى اتحنط كل يوم استعدادا للموت ، وأما الآن فقد جئتك بحسن الذى ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد المحطبة اختى رملة وقد أخبرته بقبول المحطبة فان خالدا لاهل لذلك »

فرفعت رأسها وهى تجيل عينيها المطبقتين كأنها تحاول أن تنظر الى ابنها ، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطي جانباه بالنقاب فرأى دمعين تقطرتا من جانبيه أنفها بغير أن يبدو للبكاء أثر فى وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من نبات جاشها وقوة قلبها . ثم قالت : « لقد صنعت خيرا يابنى » . وسكنت وكان فى نفسها شيئا تكتمه ثم قالت : « فى أى ساعة نحن من الليل الآن ؟ »

قال عبد الله : « نحن فى الصباح » . وما أتم كلامه حتى سمع فى الخارج دوى شديد أعقبته صيحات الاستنكار من الواقفين بالباب الخارجى للمسجد ، فأدرك حسن ان الهجوم قد بدأ ، وان ما سمعوه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكمية . ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحته وبن القنوط فى وجهه ثم التفت الى أمه وقال : « لقد بدأ أعداؤنا هجومهم الاخير يا اماء ، وقد آليت ألا أفعل أمرا الا استشرتك ، فماذا تشيرين ؟ »

فنظر حسن الى أسماء وتفرس فى وجهها فاذا هى تزيج النقاب عن وجهها ، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لآمن الخوف : « أنت أعلم بنفسك يابنى ، فان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك : ولا تمكن من رقبتيك غلمان بنى أمية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلك نفسك

ومن قتل معك . وإن قلت : ( كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ) . فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ! »

فقال عبد الله : « إنما أخاف أن تقتلني أهل الشام إن يمثلوا بي »

فقالت : « يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ ، فامض واستعن بالله »

فقبل عبد الله رأسها وقال : « هذا رأي الذي أصر عليه حتى اليوم ، والله يا أماء ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعاني إلى ذلك الأمر إلا غضبتي للحق ولقد زدتنى برأيك هدى وبصيرة » . ثم سكت قليلا ، وقال : « اسمعي يا أماء ، أني أشعر بأنني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إثارة منك ، ولا عمل بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ولم يغير في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد . ولم ييلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته . ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي »

فقالت وقد بان الجد في جبينها : « أرجو أن يكون عزائي فيك جيلا . أن تقدمتنى احتسبتك ، وأن ظفرت سررت بظفرك . فامض لشأنك ، والله معك ، ولئن قتلت ففى سبيل الله »

ثم اتجه عبد الله إلى حجرة أخرى ليودع أخته ، وظل حسن واقفا في انتظار عودته ، فسمع أسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت :

« اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظلم في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين » . فاستغرب حسن صبرها وقوة إيمانها . ثم عاد عبد الله إليها وهم بتقبيل يدها ، فأمنكت يده وضمته إلى صدرها فائلة :

« هذا وداع فلا تبع »

فقال : « إنما جئت مودعا فمكاني بهذا اليوم آخر أيامي من الدنيا »

فخفق قلب حسن تأثرا ، وترقرق الدمع في عينيه ، ونظر إلى أسماء فإذا هي لم يبد في وجهها ما يدل على التأثر ، فعلم أن ثباتها فوق ما كان يسمعه عنها ، ثم ما لبث أن سمعها تقول لعبد الله : « امض على بصيرتك وأدن منى حتى أودعك » . فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت : « ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! » . فقال عبد الله وقد بدا الخجل في وجهه : « ما لبسته إلا لأشد به متنى » . فقالت : « أنه لا يشد متنا . اليس ثيابك مشمرة » . فمد عبد الله يده إلى الدرع ونزعها ، ودرج كفيه ، وشد أسفل قميصه وجبته تحت ثنيات سراويله وأدخل أسفلها تحت المنطقة . ثم خرج »

## مقتل بن الزبير

خرج حسن في أثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى النهاية . وشعر عبد الله بذلك ، فالتفت إليه وقال : « ناشدتك الله إلا تعرض نفسك للقتل » .

وكان حسن على يقين من فوز جند بنى أمية ، لكثرتهم واتحادهم ، ولكنه ظل سائرا في أثره حتى خرجا من المنزل ، فلما وقع نظر عبد الله على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم ، قال لهم : « اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم » . ولما كشفوها علم أنهم بقية أهله فقال : « يا آل الزبير لو طبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله . فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غصوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسالوا عنى فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الاول . احلوا على بركة الله » .

وبقى حسن حائرا لا يستطيع الاشتراك فى القتال ، نزولا على رغبة ابن الزبير . وحتى لا يراه الحجاج أو بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه به عرفة . فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهى المعركة . فلما مضى عبد الله ومن معه الى القتال التفت فرأى أعلام بنى أمية قد ملأت الطرقات ، فسارع الى المسجد الحرام ، ولكنه لم يستطع الدخول ، لأن الحجاج كان قد أوقف ببابه أناسا ليمنعوا الناس من دخوله ، فدخل منزلا الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود ، وينتقل فى المعركة من جهة الى أخرى ، وبجانبه ابن صفوان يدافع عنه ، ثم سمع عبد الله يقول : « ويلمه فتحا لو كان له رجال » . فقال له ابن صفوان : « أى والله والف » . فحدث حسن نفسه بأن يمضى اليهما ويقاتل معهما ، ثم لاحظته التفاتة فرأى الحجاج قد ترجل وأقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد أن رأهم لا يقوون على الوقوف بين يديه ، وكان حامل علم ابن الزبير يقف يباب شعبة من أبواب المسجد ، فهجم الحجاج عليه بمن معه ، فرأهم ابن الزبير فسارع الى صدهم عنه ، واستمر القتال على أشده يباب

المسجد ، ثم دخله الفريقان ، ولم يمض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم وأخذوه منه ، فتفرق رجال ابن الزبير من حوله ، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو وابن صفوان ، ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبد الله وحز رأسه وحمله الى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الرأس سجد وأكرم صاحب البشارة . ثم أمر بأن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة ، وبأن تصلب جثة ابن الزبير في الحجون - وقد صلبوها أياما - وهكذا أيقن حسن بانتصار الحجاج ، وتذكر ان سمية عنده في المعسكر ، فرأى ان يسارع اليها فيه ، فاما نجا بها ، واما عاد الى محبسه ، وسرعان ما تسلل الى المعسكر ، وهو يحاذر ان يراه احد ممن يعرفونه فيحبط مسعاه ، وقال في نفسه : « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان وأصبحت الخلافة لا يتنازع فيها منازع » . وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هيئة فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة يمينه فلا يشك الذي يراه من بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازع من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عارا ، ولكنه هونه على نفسه لأنه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته والا فانه سيكون سببا لتعاسة سمية أو قتلها . فمضى في طريقه الى المعسكر ، وهو في ملابس الحراس التي أخذها من خادمه ، فلما بلغه رأى ان يذهب أولا الى خيمة السجن ليرى ماتم في أمر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية ، فلما بلغ الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر في الامر ، ثم رأى ان يعجل بالذهاب الى سمية في الخباء لئلا تفوت الفرصة . وفيما هو سائر وقد أوشك ان يبلغ الخباء سمع صوت أبواق ، فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدتين من مكة ، فأسرع في مشيته ليعتد عنهم . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله احدا ، وخشى أن تحول بفتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها ، لأنها لم تره منذ خروجه من المدينة ، فتمهل في سيره ، وأخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه ، وهل سمية وحدها ، أم عندها احد من النساء أو الخدم أو غيرهم . وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاح بسمعه فرأى شبيحا خارجا ، وما تفرس فيه حتى أدرك انه أمة الله جارية سمية ، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها . أما هي فكانت قد رآته في دار عرفة بالمدينة ، فلما رآته والحربة في يمينه وعليه ثياب حراس الحجاج ، استعاذت بالله ، ثم ما لبثت ان تفرست فيه فعرفته وقالت : « حسن ؟ »

قال : « نعم . أين مولاتك ؟ »

قالت : « هنا » . وأشارت الى الخباء الذى خرجت منه

قال : « وكيف حالها ؟ » . قالت : « انها فى حال تدعو الى الرثاء حزنا عليك ، وخوفا من ذلك الظالم ولاسيما بعد أن فرغ من الحرب ، وقتل ابن الزبير ، فتحلل بذلك من قسمه »

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخباء ولكنه خشى أن تسمى البقعة الى سمية فقال لأمة الله : « ادخلى وأنبئها بقدومى لنخرج معا من هنا الآن »

فدخلت أمة الله ، ولم يصبر حسن الا قليلا ثم دخل فى اثرها فوجد سمية جالسة وهى تفرك عينيها بأناملها وتنتظر الى أمة الله وتقول : « اصحيح ما تقولين ؟ حسن هنا ؟ ! حسن جاء ؟ ! لا . لا . لا . انك تمرحين ، أو أنا فى حلم ! »

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ما قاسته ، فازداد خفقان قلبه ، وأجابها بدلا من أمة الله فقال : « بل أنت فى بقطة يا حبيبتى . وها انذا جئت لانقاذك ، هلم بنا نخرج الآن من هذا المعسكر . هيا باسمية فان الوقت ضيق والخطر قريب »

فوقفت وركبتها تصطكان ، ولبست نعالها والتفت بعباءتها ، وقالت وهى ما زالت مذهولة : « ما أحسن هذا اللقاء ، هلم بنا »

وكانت أمة الله مشتغلة بأخذ بعض الطعام للترزود به خلال الرحيل ، ولكنها كانت أكثر منها انتباها لما حولها . فسمعت وقع حوافر خيل قادمة من بعيد فأسرعت اليهما وهى تقول : « لقد جاء الفرسان . واظنهم الحراس الذين كانوا حول الخباء بالأمس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف : « حسن . حسن . لا تخرج فانهم اذا راوك خارجا اشتدت شبهتهم فيك . لا تخرج . واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معا »

فشارت الحمية فى رأس حسن ، وهان عليه لقاء الاولوف تغانيا فى الدفاع عنها فقال : « لأعاش من يمسك بسوء وأنا حى »

وشعروا باقتراب الخيل من الخباء ، وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثر فأمسكت سمية بيد حسن ، وقالت وهى ترتعد : « أما ان نعيش معا ، وأما ان نموت معا » . ولا تسل عن خفقان قلبيهما تأثرا للقاء الفجائي وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم أولئك الفرسان ، فبقيا واقفين صامتين ، وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وأرتعدت فرائصهما ، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه أشد بطشا من

الأسد ، وبأنه قدير على انتقاذ سمية من جيش باكملة . وكذلك كانت سمية قد أنساها اللقاء كل خوف على نفسها ، وأصبح كل ههما ألا يصاب حسن بسوء ، فامسكت به وهى لا تدري أتعرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، أم تقر هى معه وفى فرارها خطر عليه ، أم تستبقيه فى الخباء معها وفى بقائه تهمة كبرى ؟ مرت كل هذه الهواجس بهما فى لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين ، ومعرفة ما وراءهم ، فلما وصل الفرسان الى الخباء ، أحدقوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه ، كما كانوا بالأمس ، فاطمان قلب حسن ورجح أن قدومهم ليس لشبهة أو تهمة جديدة . فأخذ يهدئ روع سمية حتى سكن جاشها ، وقضيا ساعة يتبادلان الأحاديث ، وقد نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا أنهما فى مكان غير ذلك المكان ، بل خيل لهما أن أولئك الفرسان انما هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما ، فى تلك الساعة التى تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها



وبينما حسن وسمية سابحان فى ملكوت المناجاة ، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل فى الفضاء ، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج . وكانت أمة الله مشغولة ببعض الشؤون فى طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان . ثم رأت السهم يستقر فى العمود ، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا فى موضع الريش منه رق مقوى ، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه : « اطلع عرفة على مقركما فوشى بكما وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين » فاضطرب حسن وأيقن بوقوعهما فى الخطر ، ولم ير بدا من تهئية كل أسباب الاطمئنان لسمية ، وكانت قد قرأت الكتاب معه فامتقع لونها وتملكها الجزع فابتدراها قائلة : « لا بد لى من الذهاب الى الحجاج بنفسى ، فانى لا أظنه أرسل فى طلبى الا معتقدا انى فررت من محبسى بالأمس »

فقطعت كلامه قائلة : « اتذهب الى الحجاج وانت تدري ما يكون منه ؟ . اعوذ بالله من شر هذا الرجل . انه لا يعرف غير القتل وسفك الدماء . ولا شك فى ان نقمته عليك قد اشتدت بعد أن علم بأنك عندى هنا .

يا ليتنى مت قبل هذا . دعنى أذهب بدلا عنك فاذهب فداء لك ، فانى مقتولة على أى حال »

فوضع يده على كتفها وقال : « لا أرى الامر يقتضى كل ذلك ، ولئن قتلت فما كنت أنت سبب قتلى ، وعسى إلا أقتل ، وقد كنت أستطيع الفرار بنفسى من بين أيدي هؤلاء الفرسان ، ولكنى لا أريد النجاة وحدى ، وأخاف إذا خرجت معى أن تقمى بين أيدي أحدهم فتلحقك أهانة ، وهى عندى شر من القتل . أما ذهائى الى الحجاج بنفسى فانه أحفظ لشرفى وشرفك ، وما يأتى به القدر لامناص منه . هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه أمير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحلوا رأسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسمها و أمه تشجعه على استقباله ، فلا توهنى عزيمتى ، ولا تخوفينى لقاء الحجاج . ولكن اذا قدر لى الموت فاذكرى اننى ذهبت شهيدا فى سبيل هوالك . قال ذلك واختنق صوته ، فتساقطت دموعها على خديها تأثرا ، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة السم وقالت : « ليطمئن قلبك فقد أعددت ما يلحقنى بك اذا أصابك سوء . وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم أن يتخذنى زوجة له بالفعل ، فان هذا السم كفيـل بانقاذى من ذلك »

فأعجب حسن باخلاصها له وانفتحا وقال : « الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لا تكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى الله ان يأتى بالفرج »  
ثم رفع يده عن كتفها وقال : « استودعك الله ياسمية وموعدا فدا ان شاء الله » . قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول أن تنفيه من عزمه بدموعها . فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته : « أين عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليه فارس منهم وقال : « وماذا تريد منه ؟ »  
قال : « أريد أن يهدينى الى فسطاط الأمير لأذهب اليه »  
فقال : « لم بأذن لنا الأمير فى الرجوع اليه ، وانما أمرنا أن نحرس هذا الخباء حتى يأتى هو ، ولعله آت الساعة »

فأدرك حسن أن ذلك تدبير عر فجة ، وانه أراد أن يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته ، فاعتزم أن يحبط محاولته فقال : « ولكننى فى حاجة الى رؤية الأمير الساعة »

قال الفارس : « لا يمكنك الخروج من هذا المكان »  
قال : « لابد من خروجى » . ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول احباط مكيـدة عر فجة ، ولكن الفارس حذرهم قائلا :  
« خير لك أن تمكث هنا »

فقال : « واذا لم امحس

قال : « اننا مأمورون بإبقائك هنا حيا ريثما يجيء الأمير »  
فأدرك حسن أن الحجاج انما أراد الإبقاء عليه ليبحث التهمة التي  
وجهها الى عرفة في شأن الكرسي ، فتجلد وقال : « أقول لكم لا بد من  
هابي الساعة الى الأمير ، والاخذوني الى السجن أمكث فيه الى  
لصباح » . قال ذلك ومشى فتجمعوا حوله ليمنعوه ، واذا بفارس  
قبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا  
فيما بينهم ثم ترجلوا . ففهم حسن أن الحجاج وحاشيته هم القادمين .  
فوقف ينتظر ما يكون

وكان الحجاج مازال بشيابه التي حارب فيها ابن الزبير وقد غطته  
الدروع هو وجواده وعليها بقع الدماء . فلما أقبل قال للفرسان :  
« ماذا تفعلون هنا ؟ »

فقال عريفهم : « نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج »

قال : « ومن أمركم بذلك ؟ »

قال : « امرنا به عرفة باسم مولانا الأمير »

فاطرق الحجاج وقد أدرك أن عرفة لا هم له الا الإيقاع بحسن ولم  
يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفة ،  
وانما جاء الى خباء نسائه لأنه تحلل من قسمه بعد مقتل ابن الزبير ،  
فلما علم بما أمر به عرفة ، سال العريف : « وهل حاول أحد الخروج ؟ »  
فقال العريف وهو يشير الى حسن : « وجدنا هذا الرجل خارجا ،  
وطلب الذهاب الى الأمير »

ونظر الحجاج الى حسن ، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفة به ،  
وعظم عليه أن يراه خارجا من خباء نسائه . فهم بأن يأمر بقتله ولكنه  
تذكر التهمة التي وجهها الى عرفة فرأى أن يصير عليه الى الغدحتى  
يثبت التهمة على عرفة ، ثم يقتلها معا شر قتلة

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما  
يتحقق الأمر فقال : « خذوه الى السجن وموعدنا الغد »

فسر حسن لذلك التأجيل ، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى  
الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كا  
زوجها



## محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته في السجن وعليه الحراس . وفي الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكرا وقد أمر الحجاج ألا يحضر المجلس أحد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط ، وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له : « لقد كنت في السجن من قبل ، فكيف خرجت منه ؟ »

قال حسن : « خرجت منه لأمر اقتضى هذا الخروج ، ثم عدت اليه طائعا ولو أنني أردت الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامه وقال ساخرا : « ذهبت لأمر ضروري ؟ . أما ذهبت الى عدونا وكتبت في منزله طول ليل أمس ، وإذا كنت قد رجعت لمالك لكي تذهب الى الجباء . لا الى الحبس »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لغتة ظهر الغضب فيها وادرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال : « لا أجهل اني جاوزت الحد بتكلمي في حضرة الامير ، ولكنني لم أستطع الصبر على نفاق هذا الفلام وخداعه ، فهو يوهمنا انه ليس من الأعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل أخبارنا الى عدونا ، ويرجع بعد ذلك لكي يوهمنا انه رجع الى السجن بينما الامير قد رأى بنفسه لاى شيء رجع »

فادرك الحجاج ان عرفجة يعرض بوجود حسن في الجباء ليشير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق ، فصبر والتفت الى حسن وقال : « لاهمنا السبب الذي خرجت لأجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا في أى حال . وسنبحت أمر دخولك خباء نساءنا فيما بعد . أما الآن فانك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس ، ونريد ان نعلم ما حملك على هذا الاتهام ، وأى دليل على صحته لديك ؟ »

فاضطرب عرفجة لعودة الحجاج الى التحقيق في تهمة ، وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغى لما سيقوله حسن ، فقال هذا : « أما كونه خائنا للدولة بنى أمية

فأمر لاشك فيه ، وقد رأيته بعيني واقفا بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب ، ومعه الكرسي الذي كان المختار بن أبي عبيد يسميه كرسي علي ، ويستغله في الدعوة الى بيعة ابن الحنفية . وقد سمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج علي بنى أمية في العراق ، والدعوة الى بيعته لانه في زعمه أولى من بنى أمية بهذا الامر »

وكان الحجاج مصغيا لما يسمعه وهو يتفرس في حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجح انه صادق في دعواه . فقال له : « تم ماذا ؟ » قال : « أما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفة وردعه عن القيام بهذا الامر ، ثم أمر باحراق الكرسي ، فأحرق بين يديه ، وأخرج عرفة من عنده مهانا »

ورأى عرفة ان الحجاج اوشك ان يصدق دعوى حسن ضده ، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالتخداع والمغالطة ، فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال : « اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير في نفس مولاي فليأمر بقتلي حالا ، ولكن هذا الغلام كاذب في كل ما ادعاه ، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذي لم يرتكبه احد قبله »

فقال حسن : « أما ذنبي فلا أنكره ، وسأبسطه لمولاي ، وله ان يحكم بعد ذلك بما يشاء ، وأما أنت . . »

فقاطعه عرفة قاصدا أن يشغل الحجاج عن ذنبه هو ، وقال له : « ان ذنبك لا يحتمل الإنكار لانه ظاهر للعيان . وأما اتهامك اياي بالمرور من دعوة بنى مروان فاختلف محض لم نسمع بمثله . وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك » . قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال : « لاتصح دعوى بلا بينة ، فما هي بينتك علي ما تقول ؟ »

قال : « لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ولم يكن معهما ثالث »

فصاح عرفة : « اسمعت يامولاي ؟ ارايت تناقض اقوال المنافق الكذاب ؟ . اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين كما قال الآن فما الذي اطلعه على هذا السر ؟ ! . ان جهله ابي الا ان يوقعه في شر أعماله لانه لم يحسن سبك أكذوبته »

وشك الحجاج في صدق حسن فقال له : « لقد صدق عرفة ، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته علي انك رأيت وسمعت ، فكيف تقول بعد هذا ان الحديث كان سرا بينهما ولم يكن معهما ثالث ؟ » فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفة ، تجلد وقال : « نعم

بامولاي كان الكلام بينهما في فسطاط مقفل ، ولكنني سمعت ورايت  
خلصة ! »

فقال عرفجة : « لقد بدا من تناقض أقوالك انك لم تسمع ولم تر ،  
ولعلك تريد أن تستشهد بشريك لك في خداعك وكذبك ، ولكني لأقبل  
الا شهادة محمد بن الحنفية نفسه ، فانك اعترفت بأنه وحده الذي  
سمع حديثي »

فقال الحجاج : « هذا طلب عادل ، ما في ذلك شك »

وهنا تذكر حسن انه ارسل بلالا الى ابن الحنفية ولا يدري ماذا كان  
من امره معه فقال : « ان الأمير أدري مني بما يحول دون الوصول الى  
مثل هذه الشهادة . لاننا اما أن نستقدم ابن الحنفية الى هنا ، واما ان  
نذهب اليه أو نستكتبه .. »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه »  
فقال الحجاج : « ذلك شيء يسير ، وان ابن الحنفية مصدق عندنا  
وان لم يكن على دموتنا »

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف البحث ، ثم  
التفت الى حسن وقال : « بقي علينا النظر في تهمتك ولكنها ليست تهمة  
نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القحة ؟ »



وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه ارسل من يأتي بشهادة ابن  
الحنفية ، فلما فاجاه بهذا السؤال ، اضطرب ولكنه تجلد وهم بأن  
يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : « أنا أروى لك الخبر كله بامولاي ، فانه  
يخجل أن يرويه »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال : « لماذا  
أخجل ؟ . أخجل لأنني أنقذتك من الموت أنت وأهل بيتك ؟ . أم أخجل  
لأنك خدعتني بوعده ثم تكثت غير مرة ؟ . اني لم أعمل عملا أخجل من  
ذكره » . ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصار قصته مع  
عرفجة منذ انقلذه في العراق . وكان الحجاج مصفيا الى الحديث باهتمام ،  
فلما بلغ حسن الى سعي عرفجة في قتله قاطعه هذا قائلا : « لقد  
سمعت في قتله بامولاي لأنني رايت معه كتابا الى عبد الله بن الزبير الذي  
فر اليه بالامس ، وقد أبلغت أمره الى طارق بن عزموعامل المدينة فعده  
جاسوسا ، وأرسل من يقتله . أما اني وعدته بابنتي فان مولانا الأمير  
خطبها بعد ذلك فكيف أرفض شرفا أولانيه الأمير ؟ . والعجب كل

العجب انه بعد أن علم بأنها زفت الى الأمير مابرح يرجو الحصول عليها .  
وبلغ من قبحته انه جاء الى هذا المعسكر محاولا اغراءها بالفرار معه .  
ولكن الله أوقعه في أيدينا وسجنه ، ففر الى عدونا ليوقع بنا ، ثم اغتتم  
اشتغال الأمير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الأمير بنفسه خارجا  
من خباء سمية ، فاذا كان الأمير يرى الصبر عليه حلما ، فاني لاصبر  
لى على مثل هذه الخيانة »

فوقع كلام عرفة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب ،  
وثارت غيرته فالتفت الى حسن وقال : « هل تنكر أنك تحب سمية ؟ »  
قال : « كلا »

قال : « وتقول ذلك بين يدي وانت تعلم انها من نسائي ؟ »  
فظل حسن ساكنا ، فقال له الحجاج : « وهل هى تحبك ؟ »  
فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على  
نفسه فاراد الرفق بها فقال : « لا أدري . . »

فقال عرفة : « انها لا تحبه ، ولكنها فتاة ساذجة استغل طيبة  
قلبها ليخدعها . ولاشك في أنها تفاخر كل نساء المدينة بما نالت من  
الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامي دمار بنى أمية »

فاستاء حسن من ذلك التديليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفة  
فقال له بصوت ملؤه الرزاة والتعقل : « لا أنكر أن سمية نالت احسن  
ماتمناه فتاة بزواجها من مولانا الأمير ، ولكنك يا عرفة لم تزف ابنتك  
الى الأمير الا رغبة في المال ، ولو مهرك هذا المال زنجى لزففتها اليه ! »

فصاح عرفة : « يا للقحة . اتقول ذلك في حضرة الأمير وتذكر  
عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟ ! » . ثم التفت الى الحجاج وقال :  
« لقد كفك يامولاي صبرا وحلما على من لا يستحق غير القتل والعذاب  
الاليم »

فالتفت حسن اليه وقال : « اتعرض الأمير على قتلى يا عرفة  
وانك لأكثر استحقاقا للقصاص ؟ . أنك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك  
للدولة التى تدعى أنك تدافع عنها . وأما انا فاذا قتلت فاني أذهب  
شهيد الامانة والحب الصحيح ! »

فالتفت عرفة الى الحجاج وقال : « اسمعت يامولاي ؟ انه ما زال  
بذكر الحب »

فقال حسن : « وهل الحب عار ؟ . نعم انى احب سمية حبا شديدا ،  
كما انى اكره اباها كرها شديدا . ولا أبالي أن اصرح بذلك ولا ان أقتل  
في سبيله . أما أنت فانك ستقتل لأن شهادة ابن الحنفية آتية عما قليل ،

وهي قاطعة بخيانتك للدولة ولامر المؤمنين »

وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط ، فرأى بلالا قادمًا من بعيد وقد علاه الغبار . ففحق قلبه ، والتفت الى الحجاج وقال : « أرجو أن يأذن مولاي في ادخال هذا القادم ، فهو رسولي الى ابن الحنفية ، وعسى أن يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواي » فقال الحجاج : « وای رسول ؟ »

قال : « رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية في شعب على ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفة من حديث الكرسي . وهذا الرسول كان معي يوم حريق الكرسي ، فليأمر مولاي بادخاله لنرى ماجاء به » فنادى الحجاج : « ياغلام » . فدخل أحد غلمانه فقال له : « نرى رجلا قادمًا برسالة فادخله علينا »

فعاد الغلام ومعه بلال . وأخرج هذا عقدة من القصب الفليسط سلمها الى الحجاج محتومة . فقرأ الختم من الخارج فإذا هو ختم ابن الحنفية ، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغته في وجهه ورقصت لحيته على صدره ، ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته . فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى عرفة وقال له : « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والغدبة . وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما أتهمك به هذا الشاب »

فهم عرفة بأن يتكلم ، ولكن الحجاج انهره وقال : « لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ماسمعناه من خلطك » . ثم صفق فجاءه الغلام فقال : « اني بالجلاد » . فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلو رأسه عمامة مستطيلة ويده سيف حاد . فأشار الحجاج بسبابته الى عرفة وحسن وقال للجلاد : « اتنى براسيهما » . فصاح عرفة : « كيف تأمر يقتلى ولم تتحقق تهمتي ؟ . ان هذه الرسالة مزورة » . وأخذ في الصياح حتى سمع صوته كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد : « هات رأس هذا أولا » . وأشار الى عرفة

فجره الجلاد حتى أركعه في الفناء ونزع عمامته عن رأسه ، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه ، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه والناس ينظرون

ووقف الجلاد بين يدي الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفة ، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد : « وهذا ايضا »

فأمسك الجلاد بطوق حسن وأراد جره الى الخارج . فقال حسن للحجاج : « أتقتلني بعد أن رأيت صدقي وأخلاصي ؟ »

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال : « أنسألني لم أقتلك وأنت مستحق الصلب مغذ أبام ؟ . انما صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر »

فقال حسن : « اذا لم يكن بد من قتلى فاقتلونى داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس »

فقال الحجاج : « اتشترط علينا ؟ » . ثم التف الى الجلاد وصرخ فيه قائلا : « اقتله يا جلاد والا قتلتك ! »

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه ، فقال حسن : « لا تجذبني هكذا فما أنا بخائف من الموت ، رغم انى واثق ببرائتى » . قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهمان بالخروج ، علا صوت قعقعة وسمع الحاضرون معها قائلا يقول : « البريد . . البريد . . بريد امير المؤمنين »

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد ألا يمنعه أو يؤخره لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلا : « ادخلوه »

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفرت ثيابه ، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتابا محتوما . وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ماكادت تقع على ذلك الكهل حتى يفت اذ عرف انه صديقه أبو سليمان ، وتذكر أنه كان قد ارسله الى خالد بن يزيد فى الشام ليأتى منه بكتاب فى شأن رملة الى ابن الزبير ، فهم باستئذان الحجاج فى كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وأن رملة فى انتظاره لتزف اليه فيكون قد أتم مهمته قبل موته

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فراه تناول الكتاب ونظر الى خاتم الخلافة على ظاهره ، ثم قبله ووقف تعظيما للخلافة . ثم نظر الى الرجل الذى حمله وقال له بعد أن تفرس فيه : « من أين لك هذا الكتاب ؟ . أنت من عمال البريد ؟ »

فقال أبو سليمان : « لست منهم يامولاى ، ولكنهم حلونى على دواب البريد تعجيلا بابلاغ هذه الرسالة » . قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفتحه ، وجعل يعيد قراءته ويتشاءب ويحك شفثيه بأصبعه ويمسح بشعر لحيته وقد ظهر التأثر فى عينيه . ثم أخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل

في ختمه ويقلبه بين يديه ، كل هذا وأبو سليمان ما زال مستلقيا عند قدميه وهو يلهث من التعب وينظر الى وجهه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر في وجهه ، وكلهم سكوت ينتظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب

وأخيرا ، أشار الحجاج الى الجلال بالانصراف فانصرف ، ثم صرف بقية الحاضرين ولم يبق في الخيمة الا هو وحسن وأبو سليمان . فالتفت الى حسن وقال : « هذا كتاب من أمير المؤمنين جاءني بما كنت تبغيه أنت . ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الأرض من ينجيك من القتل » فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرته ولكنه لم يطمن تماما لأنه لم يفهم فحوى هذا الكتاب ، فاطرق وظل ساكنا فنادى الحجاج : « يا غلام » . ولما أقبل غلامه قال له : « ادع الكاتب » . فخرج ثم عاد بالكاتب ، فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال : « اتل هذا علينا » . فتلاه وهذا نصه :

« من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا في الحجاز . أما بعد فقد بلغني أنك خطبت ابنة عرفة المنافق ، وهي مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمتها منها . والرجل ينتمى اليينا وتهمنا رعايته ، فاذا أتاك كتابي فاحل الفتاة الى خطيبها ، وأمهره بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه أهون على من أرتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا . وثقتي أنك فاعل ما أقول والسلام »

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رفض قلب حسن طربا ، وخيل اليه أنه في حلم ، فجعل ينظر الى ماحوله ليتحقق أنه في بقعة ، ثم سمع الحجاج يقول له : « لم تتل الكتاب عليك الا لتعلم أننا ماتجاورنا عنك الا عملا بأمر أمير المؤمنين » . والتفت الى غلامه وقال : « أعطه ألف دينار . وسمية طالق منذ الآن . فامض الى خباء النساء وأنبئها بذلك ، لتخرج معه من هذا المعسكر قبل غروب اليوم » . قال ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام ، وكان أبو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين ، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حسنا وحسن يهم بأن يخاطبه

وقبل أن يتكامل خروجهم ، راوا فارسا يسوق جواده نحو قسطنطين الحجاج والبقعة ظاهرة في وجهه فلما وصل تراجل ودخل دون أن يستأذن وقال : « ان مصيبة حلت في خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم أنه صوت عريف الحرس ، وخفق قلبه خشية أن تكون المصيبة حلت بسمية . ثم ما لبث أن سمع العريف يقول : « ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت

سما أو أصابها الموت بغتة ! »

فاحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه ، وكاذ يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال أبي سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب ، ثم لم يسمعه إلا أن يعدو نحو خباء سمية . ولم يكن أبو سليمان أقل بغتة منه ، إذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت صوابه ، فسار في أثر حسن إلى الخباء ، وسار في أثرهما بلال وعلام الحجاج

وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه أمام خبائها ، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن إلى السجن إلى الصباح ، وأيقنت أن الحجاج قاتله لا محالة . ولكنها تعلقت بالأمال البعيدة وصبرت حتى ترى ما يكون في الغد ، فقضت ليلتها تفكر في مصير حسن ، وأصحت وقد أعدت السم وجلست وراء الخباء ، تستطلع أنباء المحاكمة من الحراس . فلما جاءها أحدهم بمقتل أبيها وأخذ حسن لقتله أظلمت الدنيا في عينيها ، وكانت أمة الله قد بسّست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها ، وبعد قليل جاءها أحد الحراس نبأ قتل حسن داخل خيمة الحجاج ، فسارعت إلى السم وابتلغته مرة واحدة ثم وقعت مغشياً عليها . فصاحت أمة الله وولولت ، وأخبرت الحراس أن مولاتها تجرعت السم فأسرع أحدهم على جواده بالنبا إلى الحجاج

وظل حسن يعدو نحو الخباء ، وهو لا يكاد يرى طريقه ، ولا يبالي ما يعترضه من الأحجار أو الأوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعي ما يقول : « سمية .. سمية .. أنا حي يا سمية »

ولما وصل إلى الخباء أراد الفرسان منعه ، ثم تركوه بعد أن أخبرهم الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقية وحولها نسوة يبكين ، وكأنها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتنع لونها وأنحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك أن اندفع نحوها وفي يده خنجره فتفرقت النساء عنها ، ثم أخذ يجس يدها ويقول : « حبيبتي .. روحى .. منيتى .. ماذا أصابك ؟ ! تجرعت السم ناسا من حياتي ؟ ، انى حي يا سمية .. سمية اما أن تحيى مثلى أو أموت مثلك ! »

ولما أيقن بموتها ، هم بأن يطعن نفسه بالخنجر ، ولكنه شعر بيد أمسكت به وسمع صوتا يناديه : « تمهل يا حسن ، أن سمية حية لا بأس عليها » . فالتفت فرأى ليلي الأخيلية وبيدها كوب ماء جاءوت لترش سمية به . فقال لها : « ماذا تقولين ؟ . كيف تحيا سمية وقد



تجرعت السم ؟ ! . انه كاف لقتل أشد الرجال ! »  
 فقالت ليلي : « ان الذي تجرعتنه ليس سما فلا تخف ! »  
 فوقف ذاهلا ثم قال ليلي : « لا تعليني بالأوهام ، ان سمية قد ماتت ولا بد لي من ان أموت لأنها ماتت لأجلي »  
 قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلي : « تمهل يا حسن ، ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها في غيبوبة »  
 قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت رأسها ثم حركت شفيتها وقالت : « حسن ... حسن ... قتلك قتلهم الله ! . اني ذاهبة اليك »  
 فلما سمع صوتها جثا عند رأسها باكيا وقال لها : « سمية .. انت حية يا حبيبتي ؟ .. أنظري الي .. أنا حسن ... أنا حي يا حبيبتي وقد أنقذني الله .. افتحي عينيك يا سمية »  
 ففتحت عينيها فلما رآته قالت : « ما هذه الأحلام ؟ . حسن ؟ . أين نحن يا حسن ؟ »  
 فأجابها : « نعم أنا حسن يا سمية »  
 فجلسست وألقت نفسها عليه وأخذت في البكاء ، فقال لها : « لا تبكي يا سمية انني في خير »  
 فقالت له ليلي : « دمها تبكي لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها » فسكت وترك سمية تبكي وتشهق ، ثم رآها ترفع رأسها وتنظر الى وجهه وتصيح : « حسن حبيبى .. هل أنا في بقطة أم في منام ؟ »  
 فأجلسها بجانبه وهو يقول لها : « أنظري يا سمية ، ها انذا حي ، وهذه صديقتنا ليلي . ان أسباب تعاستنا قد زالت والحمد لله »  
 فقطعت كلامه قائلة : « والحجاج ؟ . الحجاج ؟ . وعادت الى البكاء فقال لها : « لقد جاء امر الخليفة بأن يطلقك ، ويردك الى خطيبك ، وسنخرج اليوم من هذا المعسكر » . فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق ما يقول ، فأقسم لها بحبها أنه ما قال الا الحق  
 سكن روع سمية بعد ان اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن ، ثم التفتت الى من حولها فرأت أمة الله جاريتها ، ويلي الأخيلية ، وهند زوجة الحجاج ، فقالت : « ان السم تأخر فعله ، اليس كذلك ؟ »  
 فقالت ليلي : « انك لم تتجرعى الا دقيق الدرة . واما السم الذي ظننت انك تجرعتنه فهو معي » . قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة ففتحتها وفيها السم وقالت : « الا تذكرين الليلة التي بت فيها عندك ؟ .

اننى غافلتك وابدلت بالسم دقيق الذرة ، لانى خفت أن تعجلنى بتجرعه  
دون ما يدعو الى ذلك ، فالحمد لله على نجاتك »

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت : « جزاك الله خيرا » . وكذلك  
شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى اتى على  
ذكر أبى سليمان وكيف جاء فى أبان الضيق فكان السبب فى نجاته من  
الموت ، كما كانت ليلى سببا فى نجاته سمية منه . وكان أبو سليمان  
واقفا خارج الغيباء فناداه حسن فدخل وهو يقول : « هل يدخل  
عبد الله ؟ »

قال حسن : « أى عبد الله ؟ »

قال : « خادمك »

قال : « فليدخل . انى اعده صديقى »

ثم دخل عبد الله وهو يقول : « لا تظن انى تخلفت عن خدمة مولاي ،  
ولكننى اصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرقة ، فلم  
اعد أستطيع الظهور وبقيت متخفيا اتنسم الاخبار . فلما تحققت  
نجاتك جئت لآكون فى خدمتك »

وكانت سمية قد صحت وتحققت انها فازت بحبيبها وانها نجت  
من أبيها فثبتت بصرها فى حسن ، وثبت هو بصره فيها ، واكتفيا  
بتفاهم الواظ ، ثم قال لها : « الى أين تودين الذهاب ، وأين نقيم ؟ »  
فأجابه أبو سليمان على الفور : « تقيمنا عندنا بالمدينة »

فقال حسن : « لقد اذكرتنى أمر رملة ، هل آتيت بالكتاب من خالد  
الى ابن الزبير . وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟ »  
فقص أبو سليمان قصة سعيه فى ذلك الامر على يد خالد ثم قال :  
« واما ابن الزبير فقدجئته بالكتاب ولكنه واسفاه عليه قتل ولا ندرى  
ماتم باهله »

فقال : « أهله فى مامن بمكة ، وقد صرح لهم قبسل موته بقبوله  
مصاهرة خالد . وبعد عودتنا الى المدينة سابعث عبد الله الى خالد  
بالخبر ليعث من يحمل رملة اليه »

ثم التفت الى ليلى وقال لها : « لن انسى لك جميلك ماحيت ، ويكفى  
انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم أبو سليمان سببا لبقائى »

فقال ليلى : « لافضل لى فى ذلك وقد فعلته لانى جربت هذا العناء  
وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ، ولا أظن أحدا من هؤلاء أدرك من  
حالكما أدركته » . قالت ذلك وشرقت بريقها

فادرك حسن انها تشير الى قصتها مع توبة ، فشكر الله وسكت  
حتى لا يثير عواطفها

ثم وقف أبو سليمان وقال : « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم ، وكل  
شيء يجري بقضاء من الله سبحانه وتعالى . هلم بنا الآن نستعد  
للرحيل »

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان  
زوجة الحجاج وقالت : « أرجو أن يوفقك الله الى سبيل تنجين به كما  
نجوت أنا »

فتلالت الدموع في عيني هند ولم تجب



وفي اصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعا قاصدين المدينة ،  
ماعدا ليلي فانها التمسيت وجهة أخرى . ولما وصلوا ساروا توا الى  
بيت عرفجة وقد أصبح بما فيه اثرا شرعيا لسمية . وكذلك كل ما كان  
ملكه

وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم .  
واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكيئة بنت الحسين  
وكثير من سكان المدينة ، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة ، وغنى ليلتها  
طويس ، كما غنت عزة الملاء ، وأجاد أشعب الطماع في المجون حتى  
كادت تمزق خواصر الناس من الضحك . وبعد انتهاء العرس سار  
عبد الله الى خالد في دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ما حدث في  
شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة  
كما هو مدون في التاريخ





## بعض ما قاله الأدباء في روايات جرجي زيدان

عمد جرجي زيدان الى التاريخ فاستطلع دخائله  
واستجلى غوامضه ، ورأى أنه يصعب تعميم فوائده اذا  
اقتصر نشره على كتب التاريخ ، فصاغ حقائقه في قالب  
روائي ، فكان فارس الميدان الذي لا يلحق غباره في تأليف  
الروايات

### أنطون الجميل

ان من يطالع روايات جرجي زيدان لا يسمعه الا ان  
يعترف بهذه الحيوية الفياضة التي جمعت ما تفرق من مواد  
التاريخ وصبتها في قالب قصصي محكم مشرق الديباجة ،  
يطالعها الاديب في مكتبته والعالم بين كتبه وأضابير  
والطالب في مدرسته والتاجر في أوقات فراغه فيثقف  
عقله وروحه ثقافة تاريخية شاملة

**محمد فريد أبو حديد**

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

والمدبر العام للتعليم الثانوي

ان جرجي زيدان خلق مؤرخا، وقد تعاطى فن القصة  
لخدمة العروبة والاسلام واستغل مواهبه في التأليف  
والكتابة في استجلاء غوامض التاريخ وإبراز الحقائق  
وصبها في قالب طلي وسرد مشوق  
ورواياته مقروءة في العراق من الجيل الماضي وكان الإقبال  
عليها عظيما ، ولكن شباب هذا الجيل في حاجة الى قراءة  
تلك الروايات التي أعجب بها آباؤهم

**محمد رضا الشيبيني**

رئيس المجمع العلمي العراقي

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية



# روايات تاريخ الاسلام

مسلسلة حسب العصور التاريخية

- ١ - فتاة غسان  
تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم
- ٢ - ارماتوسة المصرية  
فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر احوال العرب والاقباط والرومان في ذلك العصر
- ٣ - عذراء قرشي  
تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتي الجمل وصفين
- ٤ - ١٧ رمضان  
تفصل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت
- ٥ - غداة كربلاء  
تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين وأهل بيته في كربلاء ، ووقعة الحرة وغيرها
- ٦ - الحجاج بن يوسف  
تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة
- ٧ - فتح الانلس  
تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف احوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رoderik ملك القوط
- ٨ - شارل وعبد الرحمن  
تشرح فتوح العرب في بلاد فرنسا وما كان من تكاثف الافرنج بقيادة شارل مارتل واسباب فشل العرب في أوروبا

## ٩ - أبو مسلم الخراساني

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل ابي مسلم . ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

## ١٠ - العباسية اخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة في عصر الرشيد

## ١١ - الامين والمأمون

تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

## ١٢ - عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية في عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

## ١٣ - احمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقتها السياسية في اواسط القرن الثالث للهجرة على زمن احمد بن طولون

## ١٤ - عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي وخروج ابنه عبد الله عليه

## ١٥ - فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية ومناقب المعزدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيديية

## ١٦ - صلاح الدين ومكايد الخشاشين

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

## ١٧ - شجرة الدر

تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر

## ١٨ - الانقلاب العثماني

تشرح احوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه في طلب الدستور . ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه



# روايات لجرى زيدان

مراجعة عن سلسلة تاريخ الاسلام

لجرى زيدان اربع روايات اخرى خارجة عن سلسلة  
تاريخ الاسلام المنشورة في الصفحتين السابقتين . وهى :

## ١ - استبداد المالك

تتضمن حوادث مصر والشام في اواخر القرن الثامن عشر  
مع بسط عادات الامراء والمالك واخلاقهم ونوع حكومتهم

## ٢ - الملوك الشارد

تشمل وصف حوادث مصر وسورية واحوالهما في النصف  
الاول من القرن التاسع عشر . ومن ابطالها محمد على  
باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، والامير بشير الشهابي ،  
وامين بك

## ٣ - اسير المهدي

تناول حوادث المهديوية من اول ظهور المهدي في السودان  
الى سقوط الخرطوم . وحوادث الثورة العربية من اول  
نشأة عرابي الى الاحتلال الانجليزى

## ٤ - جهاد الحسين

هى رواية اذبية غرامية تبين ما يقاسيه المحبون في سبيل  
الحب



الرواية التالية

**شارل وعبد الرحمن**

تصدر في ١٥ سبتمبر القادم



## شارل وعبد الرحمن

### رواية ١٥ سبتمبر القادم

نمقر في الصفحات التالية فصلا من رواية « شارل وعبد الرحمن » التي تتضمن فتوح العرب في بلاد فرنسا وتحالف الأفرنج بقيادة « شارل مارتل » لصداقاتين العرب

## لقاء الحبيبين

كان هانيء قد جاء الحياء مبكرا لشدة شوقه الى لقاء مريم ، فلما بلغ غرفة القهرمانة استقبلته واستمهلته زبثما تنصرف أمها . فلما تهيأت هذه للخروج نهضت فودعتها ، ثم عادت بعد أن سارت ومعها حسان ، فسرهما أنها لم تجد ميمونة في الحياء ، حتى لاتطلع على سر المقابلة بين هانيء ومريم . فاصطحبت مريم الى غرفتها ، وسارت هذه معها وهي تفكر في هانيء وبعده عنها ، فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت ، وصعد الدم الى وجنتيها وغلّب عليها الحياء ، فأرسلت خمارها على عينيها واطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ، فزادها ذلك جلالا في عيني هانيء . وكان جالسا ينتظر في الغرفة على مثل الجمر ، وقد حسب الساعة التي قضاها في الانتظار عاما طويلا ، فلما سمع خشخشة الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم ان القهرمانة قادمة ، ثم مالبت أن رآها داخلة ومريم في أنرها فهاجت لواعج هيامه ، ونهض لاستقبالها . وسمع القهرمانة تقول متظاهرة بأن وجوده هناك كان اتفاقا : « ما الذي جاء بك في هذا الصباح أبها الأمير ؟ »

قال : « جئت لأرى وجهك ياخاله ! »

فضحكت القهرمانة وقالت : « لا أظن ان وجهي تعجبك تجعداته ؟ وكأني توقعت قدمك فأتيت اليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه ؟ » . قالت ذلك وهي تشير الى مريم ، فابتسم هانيء وقد غلب عليه الغرام وقال : « لقد عرفته وكلفت به ، فهل تراه يعرفني ؟ »

وكانت مريم مطرقة فلما سمعت كلامه نظرت اليه بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألا فيهما ماء الحب ، نظرة تغنى عن خطاب ، فلم يتمالك هانيء عند ذلك أن قال : « فهمت الجواب ! »

فضجكت القهرمانة وامسكت بيد مريم واجلستها ، وقالت وهى تحاول الجلوس : « ما أسرع ما فهمت جوابها وهى لم تتكلم ! »  
فجلس هانيء ملتفا بعباءته ، وأصلح عمامته وقال : « لقد دلنى قلبى ياخالة ، ومن القلب الى القلب دليل ! »

ثم التفت الى مريم وقال : « لا تخافى يا مريم ، انى لم آت لأزعجك وإنما جئت لأتحقق ما حدثتنى نفسى به ، حتى اذا صدق ظنى وخدمنى سعدى ، وقفت نفسى على خدمتك ، وجعلتك من أسعد الناس ! »

فتنهدت مريم تسكيناً لما جاش فى صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل ، وهمت بالكلام ولكن منعها الحياء ، وهى التى كانت لا تبالى اذا لقبت الرجال فى حومة الوغى ، فكيف تلغى لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ، ويتوقع كلمة من فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة فى عنقه ؟ ، ولكنه الحب ، يذل الاسود ويلغى السنة الفصحاء

وأدرك هانيء من تحريكها شفتيها دون ان تتكلم انها تكتم أمرا تود التصريح به لولا الحياء ، فتوجه بكليته اليها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذا عظيما : « قولى يا مريم ، لا تخافى ولا تكتمى ، فان خالتي القهرمانة لا يستحي منها ، فهى خزانة أسرارنا ، قولى : « هل تحبيننى ؟ »

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت : « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلا ؟ وأنتم معشر الامراء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات ، والحب لا يكون صحيحا الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث ؟ »

فبغت هانيء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلا وقال : « لست من هؤلاء يا مريم . وهذه الخالة تعلم انى بلغت هذه السن ولم اتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية . أسأليها تنبئك فانها مطلعة على أحوال جميع الامراء فى هذا الجند ، فان لكل واحد منهم خباء لنسائه وجواريه ، وأما أنا فلا خباء لى ، ولا احببت امرأة ولا فتاة ، ولم يكن يخطر ذلك ببالى قبل أن رأيتك صباح الامس فعزمت على أن تكونى نصيبى فى هذه الدنيا ، وتأكيذا لذلك فانى أمامك من هذه الساعة انى لا ألتفت الى سواك . فهل تعاهدنينى أنت ايضا ؟ ! »

فأبرقت اسرة مريم وأشرق وجهها وتجلت فى عينيها وحول فمها ابتسامة طارعة قل هانيء لها ، وخفق قلبه سرورا وقال ولم ينتظر جوابها : « ولكن لى شرطا أشرطه عليك وعلى نفسى ، انى لا أتم شيئا قبل الفراغ من هذه الحرب ، فإذا عدنا منها فائزين - ونحن فائزون بأذن

الله — كان ما نتحنه . فهل تعاهد بننى على ذلك ؟ »  
فقالت وهى مطرقة حياء : « ذلك شرطى انا ايضا لانى اذا فزت بك  
عند ذلك اكون قد نلت السعادتين »

فقال : « فلنتعاهد اذن على هذا الشرط » . ومد يده اليها ونظر الى  
يدها ولسان حاله يقول : « مدى يدك » . فمدتها اليه ببطء وهى  
ترتجف من شدة التأثير فامسكها بيده وضغط عليها فاحسا كأنهما  
لسا تبارا كهربائيا ارتعدت له فرائضهما ! ثم نهض هانىء وهو يقول :  
« لا بد لى من الذهاب الساعة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو ، وأعدك  
انى سأجاهد جهاد الابطال لعلمى ان ذلك يسرك ، فادعى لى بالنصر »

تم مد يده الى كفه وأخرج قارورة تفوح منها رائحة طيب قوية ،  
وقدعها لمريم وهو يقول : « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها  
عند احد فى هذا الجباء ، تطيبى بها وحدك حتى اذا أتيت لزيارتك  
تسمت ريحك قبل وصولى اليك فاستدل على وجودك قبل ان أراك ،  
وانت ايضا كلما شممت رائحة هذا الطيب تذكرين قتيل هواك » .  
قال ذلك وعينه تتلألأ من شدة الهيام ، فمدت يدها وتناولت القارورة  
وهى تبسم ، ثم تذكرت فراقه لها فى تلك الساعة فانقبضت نفسها ،  
فالتفتت نحو السماء وترقرقت العبرات فى عينيها

وكانت القهرمانة فى اثنساء الحديث قد استغرقت فى النوم وهى  
جالسة ، لا يههما من هذا الاجتماع الامانته من التحف وما ترجوه من  
الهدايا المتواصلة . وبينما هى غارقة فى أحلامها علت الضوضاء خارج  
الجباء فانتبهت فسمعت فرقة اللجم وديبدة الخيل فبغت وبغت  
هانىء ومريم . وقبل ان تنهض القهرمانة سمعت أحد الفلمان يصيح  
فى الخارج : « أين السيدة القهرمانة ؟ ! »

فنهضت القهرمانة وصاحت : « من ينادينى ؟ » . وخرجت فاستقبلها  
أحد الفلمان وهو يقول : « أن الامير عبد الرحمن يدعوك اليه »  
فقالت وقد علتها الدهشة : « وأين هو ؟ » . وهرولت نحو القاعة  
فقال الفلام : « أنه ينتظرك فى القاعة » . فعادت الى هانىء وقالت :  
« اسرع يامولاي الى جوادك وامض قبل أن يراك الامير هنا فرما رابه  
أمرك »

فاكبر هانىء ان يخرج خروج الهارب فتجلد وقال : « اذهبى انت  
اليه ولا تخافى فانى ذاهب على مهل »

أرادت القهرمانة أن ترسل مريم من باب آخر يؤدى الى غرفتها ،  
وتسير هى توا الى القاعة للافاة الأمير عبد الرحمن ، وكان هانىء قد  
اجتاز الباب الخارجى رابط الجأش حتى وصل الى أدهمه وهم بأن

بركبه فلقى بجانب الجواد رجلا من ملازمى الأمير عبد الرحمن وقد  
أسسك بشكيمته . فلما دنا هانيء منه قال له : « أن الأمير يطلب أن  
توافيه الى خيمته فى المعسكر ، فانه خرج وسيعود اليها على عجل »  
فقال : « ومن أنباه أنى هنا ؟ »

قال : « عرف ذلك من جوادك »

أما القهرمانه فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها  
عبد الرحمن ، وكان وجه مريم قد ازداد بتلك البفته احرارا ، وتجلت  
دلائل الحب فى عينيها مع ما يغشاهما من الدمع ، فلما رأت الأمير  
عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه .

أما هو فحالما رآها تذكر أمها فبادرها بالخطاب دون أن يلتفت الى  
القهرمانه وقال : « مريم ؟ ! أين أمك ، هل سافرت ؟ »

قالت : « نعم يا مولاي سافرت فى الصباح » . قالت ذلك بلثغتها  
المعومه ، ولم يكن عبد الرحمن قد سمعها تتكلم بعد فأعجبته تلك  
الثغته ، وكان لقرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار  
البفته ، وتذكر انه رأى جواد هانيء بباب القهرمانه من الخارج ، فادرك  
أن هانيئا كان هناك معها . فتظاهر بعدم المبالاة بهذا الامر ، وتأكيذا  
لعدم مبالاته خاطب القهرمانه ببرود وسداجة قائلا : « هل رجع  
الأمير هانيء ؟ »

قلما سمعت القهرمانه سؤاله لم تدر بماذا تجيبه ، وكاد يرتج  
عليها لو لم يتدارك هو الامر بقوله : « لا بأس من ذهابه فانى سأراه  
بعد رجوعى » . ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانه قائلا : « قد  
أوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفه ، وأعيد توصيتك الآن بأن  
تبالغى فى رعايتها وأكرامها ولا تمنى عنها شيئا ، ولا تلعبها تستوحش  
فى هذا الخباء فانها اعز نسائه عندى »

فانبسطت نفس القهرمانه لذلك واطمان بالها ، وتبادر الى ذهنها  
أن عبد الرحمن غافل عما حدث من لقاء هانيء ومريم وقالت : « انى  
فاعلة ما يأمر به مولاي ، والحق أن مريم لا يراها أحد الا أحبها  
وأكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول : « أين ميمونة ؟ . هل هى فى  
غرفتها ؟ »

قالت : « أظنها هناك » . ومشت لتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن : « امكثى هنا مع مريم أو امضى بها الى حيث  
تشائين ، وسأذهب أنا الى ميمونة فانى أعرف مكانها »



وكانت ميمونة قد رأت الأمير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك ، وعلمت بأنه رأى جواد هانيء ورآته يخاطب بعض غلمانته ويشير الى ذلك الجواد ، فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن يكون من أمره بعد أن يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانيء ، فشعرت بأنه لقيهما خارجتين من تلك الحجرة ، وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك له

أما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهييأ أو يقفون له وقاراً ، حتى اقترب من باب الحجرة ، فتظاهرت ميمونة بأنها قلقته لأبطائه في الوصول اليها ، فأسرعت الى الباب وعلى وجهها أمارات القلق . فلما أقبل حيثه ، وعيناها تنظران اليه نظر الحب والهيام ، مع انها غير عاشقة ولكنها كانت تجد الخداع فبدت بلمعان عينيها مع ما تتكلفه من الابتسام والاطراق وكأنها متفانية في حبه . أما عبد الرحمن فكان يستلطفها كثيراً ويحب قربها ، ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه ، وكان من الجهة الأخرى قد عاهد نفسه على ألا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار ، فضلاً عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ، ولذلك قلما كان يأتي الى الخلاء ، وإذا أتاه أظهر لميمونة عطفاً خاصاً لغرض في نفسه لم يكشف به أحداً . وقد تكون هي أدركت غرضه وتجاهلته متظاهرة بأنها تفعل ما يريد عفواً بلا قصد ، في حين أنه لو عرف قصدها لما كان جزاؤها عنده أقل من الإعدام !



وكان عبد الرحمن يعتقد مثل أهل الخلاء أن ميمونة كانت من خاصة وصفات « لمباحة » أنة الدوق « أودو » . ولذلك أبقاها عنده للانتفاع بها في الاتصال بالدوق أو بعض قواده ، ولكنه كتم هذا الأمر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانيء ، فلما بعثت اليه في ذلك الصباح أسرع اليها متوقفاً أن يسمع منها خبراً من هذا القبيل ، فلما رأى وفقتها على تلك الصورة خيل اليه أنها تعشقه وتتفانى في خدمته ، فسر ذلك ، لأنه سهل استخدامها في غرضه ، فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وقال : « ما الذي تريدني مني يا ميمونة ؟ »

ف قالت وهي تحاول الجلوس بتأدب : « أريد أموراً كثيرة يا مولاي لا أدري بأيهما أبداً » . قالت ذلك وتنهدت ، ورأى هو دمعتين تنساقطان على خديها وهي مطرقة ، تتظاهر بأنها استحييت من

افتضح حبها له ، فاتخذع بذلك ، ولكنه اجابها على الفور قائلا : « أنت تعلمين ما عاهدت ربى عليه منذ عزمت على هذه الحرب »

فاسرعت في الجواب كأنها تستدرك اصلاح ما تبادرالى ذهنه وقالت : « لا يتوهم مولاى انى اطمع في غير رؤية هذا الوجه الصبوح . ولعلى مخطئة في التطاول الى ما لا استحقه ، فان في خبء مولاى الامير عشرات من امثالى وما فيهن من تجرؤ على هذه الكلمة . أما انا فلا ادري ما الذى جرائنى عليها . فهل دلتى قلبى على الصواب ، او خدعنى ؟ لا أدري . وفى كل حال يكفينى أن يكون الامير عالما بما له فى قلبى من الحب الشديد ، وليس لى أن أكلفه مثله او مثل بعضه ، لان الحب لا يكون قهرا » . ثم غصت بريقها وسكت !

وكان عبد الرحمن يعتقد أن ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك من قبل ، فتبادر الى ذهنه أنها اندفعت الى العتاب غيرة من مريم ، والغيرة تفعل العجائب ، فأراد أن يتحقق هذا الامر فقال : « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ »

فسرت ميمونة لابتداء عبد الرحمن بذكرها وقالت على الفور : « كيف لم أرها وقد وقفت نفسى على خدمتها منذ وصولها لعلمى أن ذلك يرضى الامير ولم افارقها الا ساعة في هذا الصباح لاشتغالها في غرفة القهرمانه مع الامير هانىء ا » . قالت ذلك وهى تتظاهر بانها تقول بسذاجة وسلامة ضمير واصفت بكل جوارحها لما عساه أن يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

أما هو فأحس بشيء من الغيرة ، وتذكر أن أم مريم انما ادخرتها له ، وفكر في اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة فلم ير له سببا غير الحب المتبادل بينهما ، فحدثته نفسه لأول وهلة بأن يمنع هانئا من ذلك ، ولكن حبه اياه ورغبته في حفظ الوفاق معه الى نهاية الحرب - كما شرطا على نفسيهما - غلبا على ذلك الشعور ، فرأى الانتظار حتى تنتهى الحرب ، فاذا خرجا منها فائزين ، وكان هانىء عند ما شرطه على نفسه من البسالة ساعده في نيلها ، وعلى هذا تجلد واجاب ميمونة مظهرا عدم الببالاة فقال : « ولكن هانئا خرج الآن من عندها ، وقد لقيتها مع القهرمانه ، وسرني ارتياحها هنا ، فأرجو أن تساعدني في تحقيقه »

فاستغربت ميمونة ما سمعته منه ، وأسفت على فشل مكيدتها وذهب سعيها هباء منثورا ولكنها ارادت تحقق الامر فبالفت في التجاهل واظهار السذاجة وقالت : « ليشق مولاى بانى فاعلة ما يريد ، ولا شك أن هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالا وتعقلا ورزانة ،

وهي خفيفة على القلب لا يستطيع جلسها الا أن يحبها فاذا كنت  
لا أكرمها أكراما لولاي الامير فاني أفعل ذلك حبا لها . ولا عجب اذا  
أحبها الامير أكثر من سائر نسائه لانها أهل لذلك »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث أن يبدو منه مالا يريد التصريح  
به فابتدراها قائلا : « لقد خرج بنا الحديث عن الموضوع . ما الذي  
دعوتني لأجله الآن ؟ »

فاظهرت الاهتمام وقالت : « دعوتك لأمر مهم كان يجب أن أبدأ  
بالكلام فيه ، وربما كان فيه وحده ما يغنيني عن الأدلة على أخلاصى في  
خدمة مولاي . أما هذا الأمر ، فهو أنى علمت من بعض العيون الذين  
كلفتهم استطلاع احوال العدو بعد سقوط بورديو ، أن الكونت اودو  
ورجاله متربصون لكم في مضيق (دردون) على مقربة من هذا المكان ،  
في طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن يجهل هذا الخبر ، لأن جواسيسه كانوا منبئين  
في كل الأنحاء وأكثرهم من أهل البلاد الأصليين ولا سيما اليهود الذين  
كانوا يساعدون المسلمين انتقاما من المسيحيين وطمعاً في الغنائم .  
وكانت ميمونة لا تجهل اطلاعه على هذا ، ولكنها تجاهلت لتظهر أنها  
اطلعت على السر بسعيها الخاص ، وتبريرا لاستخدامها عبد الرحمن  
لتطلعه على حب هانيء لمریم ايقاعا للفتنة بينهما . ولو أنها علمت أنه  
يجهل نبا ترصد الاعداء له في ذلك الموضع لبالغت في كتمانها

فسايرها عبد الرحمن مظهرا الفرح بذلك الخبر وقال : « بورك فيك  
يا ميمونة وأرجو ألا تغفل عن مثل ذلك »

وساءها ان حيلتها لم تنجح ، فرات أن تحول سهام مكيدتها الى  
هانيء ، لأنه شاب لا يصبر على الكظم . وكل غرضها ايقاع الفتنة بين  
ذينك القاتلين ، ليغشل حقدهما . فلما سمعت ثناء عبد الرحمن على  
سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة العتب والدلال والاستعفاف  
ولولا رزاة عبد الرحمن وقوة ارادته غرقت تلك النظرة صدره ونفذت  
الى قلبه ، فهاجت فيه لواعج الغرام وأنسته أمر الجند والقتال



أدرك عبد الرحمن من نظرة ميمونة اليه أنها تعاتبه على وقوفه عند  
حد الثناء عليها ، فسره افتتاحها به رغبة في استخدامها فيما ينفع  
الجيش ، فابتسم لها ليزيدها بذلك تغانيا في خدمته ، ثم نهض وهم  
بالخروج فنهضت ميمونة وهي تقول : « لولا علمي بالمهام الكثيرة التي

تنتظر مولاي الامير لتوسلت ، اليك ان تبقى هنيئة اخرى . فهل أنت عازم على الذهاب للاقاة العدو قريبا ؟ واذا ذهبت فهل تتركني هنا ؟ »

وادرك انها تقول ذلك تدللا ، فابتسم مرة أخرى وخرج مسرعا يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر ، فمشت ميمونة في اثره حتى اذا وشك على الوصول الى باب الخباء سمعته يقول : « مرحبا بالامير هانيء ، ألا تزال هنا ؟ لماذا لم تدخل الى الخباء ؟ » . فازدادت ميمونة استغرابا من ذلك الترحاب ، بينما تقدم هانيء وهو يلتف بعباءته وليس في وجهه وجل ولا خجل وقد اكبر ان يرجع الى المعسكر رجوع الهارب بعد ان علم عبد الرحمن بوجوده هناك . فلما اوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله في الركاب لا يتكلم ولا ينتقل ، وخيل اليه ان مريم تنظر اليه وتراقب حركاته ، قلبت حيناً واقفا ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى الى باب الخباء ليلقى عبد الرحمن ، فلما علم انه في خلوة لا يراه فيها احد ، انتظر خروجه امام الخباء

اما مريم فلما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التفكير في هانيء وخروجه على تلك الحالة ، فأرادت ان تستطلع امره فتحولت الى جدار الخباء ونظرت من شق فيه فرأته يتمشى خارجة وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلعب شاريه ولحيته ، فاختلج قلبها في صدرها سرورا وودت لو تخاطبه ، ولكنها خافت من القهرمانة فاكثفت بالنظر اليه وتأمل حركاته . وبعد قليل سمعت ضجة في الخباء فعلمت ان عبد الرحمن خارج فأجبت ان تعلم ما يكون من امره اذا لقي هانئا ، فتحولت بحيث تراهما ولا يراها احد ، لاشتغال القهرمانة وسائر اهل الخباء بوداع الامير ، فرأت هانئا قد مشى الى عبد الرحمن حتى التقيا ، وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الأخ ويعاتبه على تخلفه ولكنه في الوقت نفسه يرحب به ، بينما هانيء يدل عليه دلال الابن على أبيه ، ويقول له : « بلغني أنك سألت عني »

فأجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه : « وهل يسأل المرء الا عن أخيه أو جيبه ؟ » . قال ذلك وابتسم وأهل الخباء يسمعون ، واكثرهم سرورا بذلك مريم ، واشدهم غيظا ميمونة . ثم مشى عبد الرحمن ويده في يد هانيء حتى ركب الى المعسكر وحولهما الخدم والأعوان

وظلت ميمونة ومريم تنظران الى ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقلبا في ناحية ، ثم عادت ميمونة الى خلوتها وأعملت فكرتها في مكيدة اخرى ، وقد أسغت أسفا لامتزيد عليه لفشل مكيدتها الاولى !



## رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى إليها ، كما أن لها خطة  
مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة في رفع  
المستوى الثقافي في مصر . والأقطار العربية ، وأما الخطة  
فالتوفيق بين قديعنا وحديثنا والجمع بين محاسن المشرق  
ومحاسن المغرب : فلا جود ولا طرفة بل هو تمسك  
وثيد في سبيل الرق والوطيد

ودار الهلال تؤدي واجبها بهدوء وعزيمة مائة ،  
مطمئنة الى ما قد أتتحت ، متطلعة الى اتقان ما تنتج —  
لا نداهن فريقاً ولا تتملق كبيراً — ولا تتساهل قيد  
شعرة فيما تتممده حقاً وصواباً

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق  
ما عداه . وهي لذلك لا تحفل بالسفاسف والصغائر ، بل  
ترحب بكل فكرة تزيهية وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام الى الامام !

# اشترك في روايات الهلال

تضمن وصول الأعداد كل شهر بانتظام

( اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف )

## وكلاء روايات الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - شارع المعرض . بناية  
وقف الروم الارثوذكس - ص.ب ٥٤٢ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعماني

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعي - ص . ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن السيد علي نحاس - ص.ب ٩٧

بغداد والعراق : السيد محمد جواد حيدر - مكتبة المعارف -

## بسوق السراي

المنامة، البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد . صاحب مكتبة المؤيد

البرازيل : Snr. Rachid S. Cury, Caixa Postal 1812 :  
Sao Paulo — Brasil.

كولومبيا : Snr. Oscar S. David, Apartado Nacional 174 :  
Cartagena — Colombia.

الارجنتين : Snr. Nicolas Yunes, Acha 2651 :  
Buenos Ayres — Argentina.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400,  
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,  
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A

متعهد توزيع روايات الهلال للباعة والمكتبات في العراق

السيد محمود حلمي











اقترأ

الطه

مجلة الجيل الجديد



في أول كل شهر